

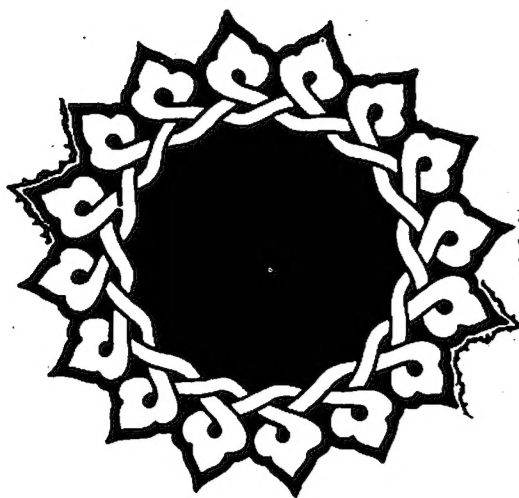
البحث الإسلامي

المنهج والشروط

وحيد الدين خان

ترجمة محسن عثمان الندوي

مراجعة د. عبد الحلیم عویس



وحيد الدين خان

الطبعة الأولى

قضية البعث الاسلامي

حقوق الطبع محفوظة

١٤٠٥ هـ — ١٩٨٤ م

قضية
الْبُعْثُ الْإِسْلَامِيّ
المنهج والشروط

وحيد الدين خان

مراجعة
د. عبد الحليم عويس

ترجمة
محسن عثمان الندوي

دار الصحوة للنشر والتوزيع
الناشر
٨٠٢

مكتبة

مكتبة دار التاليف

للمطبعة

دار التاليف

مكتبة

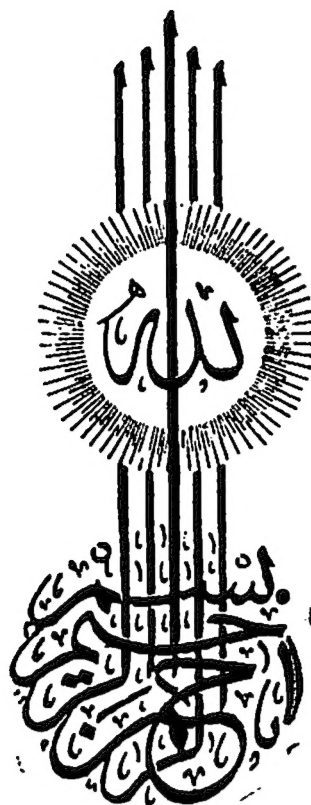
مكتبة

مطبعة دار التاليف

٨ و ٩ شارع يعقوب بالمالية

تليفون ٢١٨٢٥

و نظام التاليف





مقدمة

بقلم الدكتور عبد الحليم عويس

هذه هي الترجمة العربية لكتاب «إحياء الإسلام في المنظور القريب» للمفكر الإسلامى الهندى الكبير وحيد الدين خان .. الذى عرفه قراء العربية من خلال كتبه الكثيرة التى يقف فى قممها «الإسلام يتحدى» ، و«الدين فى مواجهة العلم» .

وعندما أوكل إلى العلامة الكبير «وحيد الدين خان» مراجعة الكتاب ، وفوقضى فى نشره .. رأيت أن الاسم الذى اختاره الأخ المترجم قد يجد بعض الاعتراضات ، من حيث إن الإسلام فى غير حاجة إلى (إحياء) وإنما الذى يحتاج إلى هذا (الإحياء) هم المسلمون .. أو هى (علوم الدين) وطرائق عرضه ، وليس الإسلام نفسه .. فدين الله (الإسلام) - كما وصفه أحد المستشرقين - (غض طرى كأن عهده بالوجود (أمس) وتخلصاً من مثل هذا الاعتراض رأيت تسميته «قضية البعث الإسلامى : المنهج والشروط» مؤكداً أن هذه التسمية تتمتع بالدقة نفسها التى تتمتع بها التسمية السابقة ، وهى تعبير صحيح تماماً عن (قضية هذا الكتاب) !!

وقد جرت العادة عند ترجمة الكتب أن يعرف - فى التقديم - بمؤلفها لكنى أجد أن العلامة «وحيد الدين خان» ، قد تجاوز بالنسبة للقارئ العربى - هذا الأمر .. وبالتالي ، فأنا أسمح لنفسى بتجاوزه ..

وأما هذا الكتاب فهو (شئ جديد) بكل معانى الجدة بالنسبة للقارئ العربى .. ولعله سيخالف - فى جملة - المسار الذى درج معظم

العاملين للإسلام على السير عليه .. ومن هنا فأنا أتوقع أن يختلف معه كثيرون .. لكن الجدير بالتنويه هنا أنه في عالم (الفكر الإسلامى) ثمة مجال للصواب والخطأ .. والمهم أن تكون عندنا الجرأة لنقرأ الآخرين ، ونحاورهم ثم نأخذ ما نأخذ ، وندع ما ندع .. وليسمح لى القارئ الكريم - وأنا رجل وثيق الصلة بالعمل الإسلامى منذ عشرين سنة أو أكثر - أن أصرحه بأن ما ورد فى هذا الكتاب جدير بأن نضعه موضع الاعتبار والاحترام ، وأن نوقن بأن (قضية هذا الكتاب) صحيحة إلى حد كبير ، حتى وإن اختلفنا مع المؤلف فى بعض الجزئيات وصور التطبيق .. وأكدنا أننا لا نعتقد أن كلام المؤلف لا يمكن أن يغطى الجهاد حقه ، كما أنه لا يمكن أن يجعل الدعوة تقف - دائماً - عند المستوى الفردى .. وفى ضوء احترام هذين العنصرين أؤكد أن تجربتنا فى التاريخ تؤيد صدق المنهج الذى سلكه المؤلف ، كما أن تجربتنا المعاشة تؤيده كذلك .

ومن ناحية المبدأ يجب علينا جميعاً الاستفادة من آراء الآخرين حتى ولو تركنا بعض تصوراتهم الفرعية .. ومن ثم يجب علينا أن نأخذ (٨٠٪) على الأقل - من وجهة نظرى - مما انتهى إليه العلامة وحيد الدين خان ، فى دراسته هذه الممتعة حول (قضية البعث الإسلامى - المنهج والشروط) مقدرين - فى الوقت نفسه - للعمل الجماعى الواضح المسالم ، وللجهاد فى ظروفه المقتضية له دورهما ...!!

لأننى لن أسمح لنفسى باستعراض قضايا الكتاب المختلفة التى تدور حول قضيته الأساسية .. كما أننى لن أستعرض فصول الكتاب بالصورة التقليدية . ولما أكتفى بهذه اللمحة العابرة حول احتمالات الإثارة التى أتوقعها لهذا الكتاب .. ويعلم الله أننى قد سمحت لنفسى بأكثر مما يسمح به عادة

(للمراجع) حتى أفسح مجالا للتعاون السمح ، والتبادل الكريم للأراء ، ولا أترك حبة الحنطة ترفض لمجرد بعض القشور الهشة العالقة بها .

ولعل أخى الأستاذ « على عبد المحسن جبر » الذى قدم لى بعض العون واستحق منى الشكر .. يشهد بهذا العبء الذى تحمّلته عن طواعية ، اعتماداً على ثقة متبادلة تجمعنى بالعلامة « وحيد الدين خان » ..

وإنى لجد مسرور لمعايشنى هذا الكتاب فترة طويلة خلال المراجعة .. لقد كانت بحق رحلة مضيئة .. لكنى تعلمت منها الكثير ... والجدديد ؟

دكتور عبد الحليم عويس

1. The \mathcal{H}_1 and \mathcal{H}_2 are both \mathcal{H} -valued
 random fields. The \mathcal{H}_1 and \mathcal{H}_2 are
 independent.

الكتاب الذي كتبه في سنة ١٩٨٥م في مدينة كينغالي في جمهورية الكونغو الديمقراطية

توطئة

أ / في منطقة جبلية قرب نيروني ، بإفريقيا الوسطى تدعى بـ « كينغالي » Kigali - تتميز بمناظرها الطبيعية الخلابة - أقيم مركز إسلامي كبير يسمى بالفرنسية « Le Centre Cultural Islamique » (المركز الثقافي الإسلامي) حيث تقرر عقد مؤتمر للشباب العرب المثقفين في سنة ١٩٨١ وكانت مدعواً لذلك الاجتماع بغية إلقاء عدة محاضرات حول الدعوة الإسلامية وإحياء الإسلام.

وهذا الكتاب هو باكورة المحاضرات التي أعدتها لذلك الاجتماع الذي أجّل ولم يقمض لي أن أحضره - وتدور هذه المحاضرات - رغم تكرار بعض الأفكار - حول محور واحد ، هو أن البعث الإسلامي الجديد يقتضي منا الآن (العقل المفكر) و (التخطيط الصائب) و (العمل الجاد) وليس الأعمال التافهة ولا مجرد الآمال العريضة والأمانى الفارغة .

لقد أسكن النبي إبراهيم عليه السلام (١٩٨٥ - ٢١٤٠ ق. م) ذريته في الحجاز ، ولما شرع إبراهيم يبني الكعبة ، دعا ربه قائلاً : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » (البقرة : ١٢٩) .

ولقد كان إبراهيم عليه السلام نبياً ، وتقبل الله منه هذا الدعاء جملة وتفصيلاً . ولكن كما يعرف الجميع فإن النبي العربي قد ظهر بعد ألفين وخمسمائة سنة ، أي خلال القرن السادس الميلادي ، وهذا خير دليل

(١) لاندري من ابن للمؤلف الفاضل هذا التحديد (!!) المراجع !!

على أن الله لا يغير النظام الكوني ولا يحدث أمراً بالصدقة، بل إن من سنته سبحانه أن يحول إرادته إلى الواقع خلال أوضاع سائرة سيراً طبيعياً ، وليس من خلال الطلائع وخوارق العادات - فعلى الرغم من قبول الله دعاء إبراهيم فإن النبي العربي محمداً لم يظهر إلا عندما بلغت الأحوال في سيرها مرحلة يتحتم فيها ظهوره كخاتم للنبيين عليهم الصلاة والسلام .

إن الإسلام يحتاج لكي يقوم بدوره من جديد إلى الالتزام بالحكمة الربانية ، وإلى الإيمان بالمستقبل الوضاء للإسلام ، لكي نبذر بذورنا في الحال ، ونحن مؤهلون بسلاح الصبر الذي يشبه صبر غارس « الحور » ليصبح شجراً قائماً صلباً في مدة مائة سنة .

إن هذا يتطلب منا راحة صدر لتنشأ دعوتنا مثل الأزهار والرياحين للأصدقاء والخصوم ولكن تتوهج هذه الدعوة مثل الشمس المظلة على كل مرتفع ومنخفض .

هذا وقد تحقق دعاء نبي الله إبراهيم ، مع مراعاة جميع الحقائق الكونية والتاريخية ، فكيف تتوقع أن تكلل جهودنا بالنجاح المفاجيء بدون مراعاة الحقائق الموضوعية في هذه الدنيا . كلا فإن الظل لن يستقيم ما دام العود معوجاً ..

مستويات للمعرفة

إن نظام الأرض والسموات نظام عجيب تحار فيه العقول ، وإذا فكر فيه باحث فعلى أى شىء يحصل ؟ إنه سيحصل على أرقام وإحصاءات عجيبة ؛ فإن قطر الأرض (٣٥ ألف ميل) وحجم الشمس يزيد اثنتى عشرة ألف مرة (١٢٠٠٠) عن الأرض . والمسافة بين الأرض والشمس ثلاثون مائة ألف ميل وتسعون مليوناً ، والأرض تدور على محورها بسرعة ألف ميل فى كل ساعة .

وهذه هى الأرقام التى يحصل عليها العلماء بدراسة الكون والعالم . ولكن عندما ينظر المؤمن إلى هذا الكون فإن نظرتة هذه تدله على الحقيقة العليا التى ترتفع فوق كل الأرقام وتنظم حركتها ، فقد ورد فى القرآن :

« إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فكنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار . ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآهنا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد » (آل عمران : ١٩٠ - ١٩٤) .

لقد نظر العالم الطبيعى أو الفلكى إلى الكون ونظر المؤمن إلى الكون .

فأما العالم فقد نظر بنظرة علمية بينما نظر المؤمن بنظرة إيمانية .. إن هذا الفارق بين المشاهدين يشكل السبب الحقيقي في الفروق بين نتائج المشاهدة لكليهما فمن نظر إلى الكون بنظرة علمية بحجة فإنه لا يجد إلا أرقاماً وأعداداً تُعد وتحصى ، ومن نظر إلى الكون بنظرة إيمانية فإن الله يتجلى له في هذا الكون ، إنه يرى في كل شيء آية من آيات الله ، وإنه يرى أن كل شيء يجري في الكون إنما يجري بحكمة من الله وتقديره ، وإنه يرى وراء أستار هذا الكون (الجنة والجحيم) .. إنه ينال غذاء إيماناً لروحه ، ويستكشف سرّ هذا الكون وهدفه فيقترب من الله ويزداد إيماناً به !!!

ويتجلى لنا من هذا أن للمعرفة مستويين : مستوى ظاهرياً ومستوى باطنياً ، وأن الاختلاف بين هذين المستويين يوجد في كل شيء ، وهذا ما يثبتناه لنا القرآن والسنة الصحيحة ، فعن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنما أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن ولكل حد مطلع) (سراج السنة) .

و (المطلع) هو موضع الاطلاع من المرتفع إلى المنحدر ، فإنك إذا قمت على أرض مستوية فلا ترى إلا ما كان قريباً منك ، أما إذا قمت على تهضبة من الأرض فسترى ما يكون على مسافة بعيدة أيضاً .

ولذلك فهناك منهجان للاستفادة من القرآن أو مستويان للفهم القرآني : مستوى المدلول الظاهري الذي يستطيع أن يفهمه كل من يقرأ القرآن ، ومستوى المدلول الآخر العميق الذي لا يناله إلا من تفكر فيه وتدبره . فالمستوى المعرفي الظاهري للقرآن هو أن نقف على معاني ظاهر الكلمات ونأخذ مدلولها ، ولا نعمل النظر في معانيها العميقة .. وأما فهم القرآن على المستوى الداخلي فهو أن نصل بالبصيرة النفاذة إلى دلالات الآيات العميقة ولا نقتصر على السطور بل نقرأ ما يكمن بين السطور أيضاً .

ونأتى بمثالين في هذا السياق ليتبين الأمر :
١ - لقد ورد في القرآن قول الله تعالى : « أيود أحدكم أن تكون له
جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه
الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم
الآيات لعلكم تفكرون » . (البقرة : ٢٦٦) .

فقد تلا الخليفة الثاني عمر الفاروق - رضى الله عنه - هذه الآية
في جلسة وقال : إن هذه الآية أرقنتى طوال الليلة ، ثم استوضح الناس
وسأل عن مدلول هذه الآية ، فقال بعض الناس : إن هذه الآية تذكر
حدائق الأعناب والنخيل ، وتذكر أنها نعمة من نعم الله وأن الله يعطيها
من يشاء أو ينزل مصائب الإعصار والطوفان عليها متى يشاء - فكانت هذه
الآيات لم تكن لها إلا هذه المعانى التى أدركها البسطاء السذج من الناس .

لكن عبد الله بن عباس الذى كان فى مطلع شبابه وقتذاك فقد قال :
إن فى هذه الآية تمثيلاً للعمل الإنسانى . فسأل عمر - رضى الله عنه -
وأى عمل ؟ . فقال : هذا مثال لشخص غنى آتاه الله ما لا ثم بعث سبحانه
إليه شيطاناً لامتحانه ، فارتكب الآثام حتى أحبطت أعماله .. فقال عمر -
رضى الله عنه : صدقت . ثم استطرد فى شرح الآية فقال : إنه قد غنى بها
العمل ، لأن ابن آدم أفقر ما يكون إلى جنته إذا كبر سنه وكثرت عياله ،
وابن آدم أفقر ما يكون إلى عمله يوم القيامة . (تفسير ابن كثير) والذين
كانوا ينظرون إلى تلك الآية بمنظار ظاهرى أدركوا المدلول الظاهرى لكلمة
الجنة ، والذين نظروا إلى تلك الآية بمنظار باطنى اعتبروا الكلمة تمثيلاً ،
كان مدلول الكلمة وفق التفسير الأول يتعلق بثمرات الدنيا ولكنه وفق
التفسير الآخر أصبح المدلول ذريعة لتبيان حقيقة الآخرة العظمى .

٢- ولما توفى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اختلف الناس في أمر الخلافة ، فمنهم من قال : إن الانتخاب يجب أن يكون في جماعة المهاجرين ، وبعضهم كانوا يتحمسون للأنصار ، وكان الناس مختلفين حول مسألةبيعة الخليفة ، وهنا ننقل قطعة مما رواد ابن أبي شيبة عن ابن سيرين .. لقد روى هذا الاختلاف فقال :

« وأتى الناس عند أبي عبيدة بن الجراح فقال : تأتونى وفيكم ثانى اثنين » (كثر العمال : مجلد ٣ صفحة ١٤) ، وأبو عبيدة يريد من قوله أن يذكرهم أنه عندما هاجر النبي - صلى الله عليه وسلم - من مكة إلى المدينة كان الوفد المهاجر يشتمل على شخصين هما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصاحبه أبى بكر ، ولهذا جاء فى القرآن : (إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار » التوبة : ٤٠ .

والذين كانوا ينظرون إلى هذه الآية بالمستوى اللفظى لم يصلوا إلى حل مسألة الخلافة ، والذين كانوا ينظرون إلى الآية بمستوى الفهم الداخلى وصلوا إلى حل هذه المسألة حلا ناجحاً ووجدوا أن القرآن قد سبق ، فحل مسألة ترتيب الخلافة . فكلمة « ثانى اثنين » تدل على أن مكانة أبى بكر تأتى بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

والبحث الظاهرى للآية وقف عند واقعة غار ثور ، بينما البحث الداخلى الأعظم أُرشدنا إلى طريق حل مباشر للمسألة التى نجمت عن وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهى مسألة اختيار الخليفة وذلك عن طريق الفهم وفق المستوى الداخلى . . . وهو المستوى الأعظم ! ! فهناك إذن فقه بالدين وفهم للقرآن على المستوى الظاهرى ، وفيه يرى الإنسان ما يبدو ظاهراً ويعمل على غراره - ولكن هناك عمل وفهم آخر - فالفهم الأول (الظاهرى) للقرآن كالسابع على سطح البحر ، أما الثانى فكالفواص على الدرر ..

إنه يصل إلى أغوار المفاهيم ، ويرى هذا الإنسان (الفاهم) الحقائق المسترة رأى العين ، إنه يرى الله في حجب الغيب ، ولئن كان شأن هذا الإنسان مثل أى إنسان في الظاهر فإنه يختلف عنه من الناحية النفسية فيختلف تخطيطه عن تخطيطه وتختلف رؤيته للأشياء عن رؤية الآخرين .

إن الإنسان الذى يقف علمه عند السطح الظاهرى لا يأخذ من الآيات إلا ديناً يمسّ جسمه ، ولا يصل إلى شغاف قلبه ، أما من قرأ ما بين السطور فسيأخذ نصيباً أوفر من المعانى حيث يكون ذلك غذاءً ربانياً لروحه . ولقد ورد في القرآن قوله تعالى : « ولباس التقوى ذلك خير » (الأعراف : ٢٦) فالشخص العادى يفهم أن المراد من اللباس هو اللباس الجسدى فبرى أنه من الواجب أن يكون اللباس مطابقاً لأوامر الإسلام ونواهيه ، ولكن عندما قرأ هذه الآية عروة بن الزبير علم أن اللباس هنا تمثيل وشرح « فلباس التقوى » يكون بخشية الله ، فكما أن الجسم الإنسانى يحتاج في زينته إلى لباس ، فإن الروح تحتاج في زينتها إلى تقوى الله وخشيته (تفسير ابن كثير) .

وكذلك الأمر في الجانب الاجتماعى للدين .. فإن إقامة الدين في المجتمع إما أن تكون باعتبار السطح الظاهرى أو باعتبار المستوى الباطنى ، فقد كان المسلمون يفكرون في « الحديدية » في العام السادس الهجرى أن الجهاد هو أن ينازلوا الكفار عسكرياً ، فإن موت العزّ خير من حياة الذل ، ولكن رسول الله ، وأبا بكر الصديق كانا يريان أن فتح الإسلام يتحقق بقبول جميع شروط الكفار وعقد مهادنة (الاحرب) معهم ليتحسن الوضع ويستتب الأمر لحملة الدعوة — كان الناس يريدون حل هذه المسألة بالسيف المصلت .. وأما الذين أوتوا حكمة وبصيرة فقد اعتقدوا أن الحل يكمن في الدعوة ، وهذا هو الميزان الذى لا يبارى فيه دين

الإسلام . وأضرب لكم مثلاً آخر من سيرة الحسن والحسين رضى الله عنهما :
لقد واجه كل منهما وضعاً مماثلاً في حياتهما - واجه الحسن رضى الله عنه
مسألة معاوية ، بينما واجه الحسين مسألة يزيد بن معاوية - رأى الحسين
رضى الله عنه بنظرة ظاهرة واعتبر المسألة مسألة حق وباطل فدافع عن
الحق وحارب الباطل ، وبالعكس ذلك نظر الحسن رضى الله عنه إلى المسألة
بوجهة النظر العملية فرأى أنه من الحكمة أن يتحاشى النزاع والصدام
ويتنازل عن الموقف ويزهد في السياسة والحكم .

والتاريخ يشهد أن الحسين بن على رضى الله عنه دفن في كربلاء ،
وأنه ترك الباطل كما هو على وجه الأرض ، ونتج عن منهج الحسن بن على
رضى الله عنه أن الإسلام قد بلغ أوج الاستقرار السياسى ، وتلاشى
الخلاف والصراع ، وأخذ الإسلام يزحف من جديد إلى أصقاع العالم
المختلفة - وبعد توقف الفتوحات - ومن ثم امتدت جيوش الدولة الأموية
إلى نصف المعمورة تقريباً .

إن السياسة الرشيدة المنتصرة في الشؤون الاجتماعية تكمن في الصبر
والجلد ، وإن السياسة السطحية تكمن في انعدام الصبر والعجلة وعدم
التخطيط ، بحيث يبدو لبعض المسلمين وكأنهم يعيشون على الأرض وحدهم
مع أنهم يعيشون - بالتأكيد - بين الأمم الأخرى على هذه الأرض التي
تعتبر مكان امتحان ، وقد أتاحت لكل شخص وأمة فرصة العمل - على
الأرض - سواء كانت هذه الأمة ظالمة أو عادلة ، فإذا أصيب المسلمون
بسوء من شخص كان أو فئة واثارت ثائرتهم ونهضوا بدافع من الثأر
والغضب واستعجلوا أمرهم فلن يكون نصيبهم إلا الخيبة والفشل .

ولكن إذا تحمل المسلمون السوء في بداية الأمر ثم فكروا في مختلف

جوانب القضية تفكراً يهديهم إلى جوانب ضعفهم وأسباب قوة الخصوم ،
ثم وصلوا إلى الحل الحقيقي للمعضلة بالعقل المنطقي السليم ، إذا فعلوا ذلك
ملتزمين بالروية والصبر فسيكونون قد وصلوا إلى حقائق الحكمة المنسجمة
مع سنن الكون .. والمصير المحتم هو النصر والتوفيق والتمكين في الأرض .

إنَّ عدم الصبر والاندفاع بدافع العواطف الهائجة يهوى بالإنسان إلى
حضيض الأعمال الطائشة ، بينما يهدي الصبر إلى (صراط) التخطيط
وحسن التصميم .. وفي دنيانا هذه يبنى العمل الطائش دائماً بالفشل ..
بينما يكمل العمل المدروس المخطط له - دائماً - بالنجاح والبقاء .

منجى الفكر

كانت الأرض الواقعة بين دجلة والفرات المسماة « مسوبوتاميا » فى التاريخ القديم (العراق حالياً) أهلة بذرية آدم الذين كانوا مسلمين آنذاك . ولكن عندما سرى فيهم الفساد بعث الله لهدايتهم رسوله سيدنا نوحاً عليه السلام : ولكن القوم لم يرضوا بترك الفسوق والعصيان فحل بهم العذاب فى شكل طوفان ، فركب نوح مع شرذمة قليلة من أصحابه فى سفينة ، فنجت هذه السفينة ومن عليها من هذا الطوفان العظيم ، وغرق الباقون .

وقد ورد فى القرآن أن ابن نوح لم يتفق مع والده ولم يؤمن به ، فذهب فريسة الطوفان « ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سأوى إلى جبل يعصمنى من الماء . قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم » (هود : ٤٣) لقد كان نوح عليه السلام يرى الطوفان (من أمر الله) فركب السفينة ولكن ابنه رأى الطوفان أمراً (مناخياً) وظاهرة من ظواهر الطبيعة فهرع إلى الجبل . فكان الفيصل بين النظرتين جوهرياً فنجى أحدهما بروحه .. وأما الآخر فابتلعه أمواج الطوفان حين آمن بالظاهرة الطبيعية وكفر (بأمر الله) .

إنك إن آمنت بأن طوفاناً قد جاء بأمر من الله فسوف تسعى إلى مرضاة الله وتتولد فى نفسك كيفية التضرع وحالة الخشية « فلولوا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون » (الأنعام : ٤٣) . وأما إذا اعتبرته حادثة من الحوادث التى تطرأ أثناء الليل وأثناء النهار بحكم ظروف الطبيعة فسوف تنمو فى نفسك الغفلة والمعصية كما كانت فى نفس ابن نوح عليه السلام .

والمسلمون يواجهون في هذا الزمان بعديد من الأعاصير وأنواع من الطوفان ، فقد هيمنت عليهم الشعوب الكافرة والقوى اللادينية سواء كانوا - في أوطانهم - أغلبية أم أقلية .. فهنا أو هناك تصب الأمم الكافرة الحاقدة جام غضبها عليهم ، وبالتالي فهم يعانون في كل مكان أنواع العذاب والشقاء .. وأحياناً تنفذ تلك الأمم المعادية إرادتها الناقمة على المسلمين عن طريق استغلال فئة منهم وجعلها غميلة لها ، وفي حال بائس كهذا كان على المسلمين أن يتذكروا وعد الله أكثر من مرة في القرآن الكريم بأنه مع المؤمنين : « ولن تغني عنكم فئتنكم شيئاً ولو كثرت وإن الله مع المؤمنين » (الأنفال : ١٩) . وبأنه سيدافع عن المؤمنين الصادقين : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » (الحج : ٣٨) .

وبأنه لن يسمح بهيمة الكافرين على المؤمنين الصادقين : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً » (النساء : ١٤١) .

وفي ضوء هذه الآيات التي يجب أن نعيها نحن المسلمين فإن علينا أن نعتقد أن ما ينتزل من انبلايا والنوائب إنما هو تنبيه من الله ، وأنه في حقيقته أمر من أمور الله وليس من الأمور البشرية العادية أو الظواهر الطبيعية .. والسؤال الواجب هنا :

كيف يرى المسلمون اليوم هذه النوائب والخطوب المحيطة بهم ؟

إن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يتحدثون علناً ويطنبون في أحاديثهم بأن هذه الأمور كلها إنما هي دسائس ضد المسلمين تقوم بها القوى المعادية للإسلام .

إن أقلامنا وألسنتنا لا تألو وسعاً ولا تدخر جهداً في إثبات هذا الأمر الوحيد ، وقلما يوجد من يرى في هذه المصائب أنها من أمر الله ،

بل ذهب بعض الناس ليكتشفوا يد « البيت الأبيض » وذهب غيرهم ليكتشف يد « البيت الأحمر » ، فمضهم من يتهم قوماً مشركين ، وممنهم من يلوم جماعة أخرى من الكافرين . وهذه - في الحق - ضلالة ما بعدها ضلالة - وهذه هي الفكرة التي أضلت الجماعات الإسلامية في هذا الزمان حيث إنهم اعتبروا (أمراً إلهياً) يؤدبهم الله به - مجرد حدث من الأحداث الإنسانية العادية ...

فالتاريخ يعيد نفسه ، لأن الخطيئة التي اقترفها ابن نوح عليه السلام في قصة الطوفان يقترفها المسلمون في هذا الزمان .

ولو أن المسلمين اعتبروا من هذا الوضع القاسي المرير الذي يعيشونه على امتداد الدنيا بأجمعها أمراً إلهياً لرجعوا إلى الله وأنابوا ونشأت فيهم فكرة إصلاح النفس وتركيز القلب وتنمية العقل . وأصبحت همهم موجهة إلى إصلاح تعاملهم مع الله على ضوء منهج الإسلام .. ولكنهم اعتبروه تأمرأ إنسانياً ودسيصة من الدسائس ، فبالتالي ثارت ثائرتهم وجن جنونهم وانتشرت نقمة عارمة بين مجتمعاتهم ضد الأمم الأخرى .

والإنسان المسلم يؤمن بأن الله قادر قدرة مطلقة فإذا حسب أن النكبة التي آلت به إنما هي من عند الله فسوف تنمو فيه نفسية التضرع والابتهاال إلى الله وتغير نفسه من الداخل .

ولكن الإنسان إذا تأكد أن النكبة هي من تلقاء إنسان آخر فسوف تتولد فيه عوامل الثأر والحقد والنقمة ، وهذه حالة المسلمين في العالم برمته فقد أصبحوا مغيطين حانقين ناقمين على الذين يصنعون بهم المؤامرات . وجدير بالذكر أن لجميع حاملي الكتب السماوية قانوناً إلهياً خاصاً موجزه أن الفساد عندما يسرى في مجتمعاتهم فإن الله ينزل عليهم المصائب

والعقوبات العاجلة لينتهبوا ويصلحوا ما بأنفسهم ؛ فاليهود الذين حملوا ديناً قديماً نالوا عقوبات شديدة في تاريخهم بما كسبت أيديهم من ضلال وفساد أسهب « الكتاب المقدس » في ذكرها ، فقد حفلت التوراة بذكر العقوبات التي حدثت قبل ميلاد المسيح عليه السلام في الزبور وأشعيا وأرميا وبابل ، والعقوبات التي نزلت بعد الميلاد ذكرت في أناجيل متى ولوقا ، فمثلاً يأتي ذكر الفساد في اليهود في الكتاب على النحو التالي :

فاشتد قهر الله على عياله فأدان ميراثه (إسرائيل) ونقم نقمة شديدة فألقى بني إسرائيل تحت هيمنة الأمم الأخرى وحكم فيهم أعداءهم .
(الزبور الباب ١٠٦) .

وإن المقت الذي تعرض له اليهود جاء ذكره في القرآن :

« وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً . فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً ، إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً ، عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدمتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً » (الإسراء : ٤ - ٨) .

ويظهر مما أسلفنا أن هذه العقوبات الإلهية أجريت على اليهود بأيدي الناس ، فمثلاً قطع دابر الحكومة الإسرائيلية بغلبة سامرية في ٧٣١ قبل ميلاد المسيح فقد أعمل السيف في رقاب اليهود فقتل عشرات الآلاف منهم ومن ثم أجلى اليهود من معظم بقاع فلسطين وحلت مكانهم أُمم أخرى واستوطنت هذه الأراضي . ولم ينزل الله الملائكة على الأرض لمعاقبة اليهود

بل كان ذلك الحاكم الآشورى سارغون الثانى « Sargon » هو الذى نفذ هذه العقوبة الإلهية على اليهود ، وفى عام ٥٨٦ قبل ميلاد المسيح عندما قتل اليهود فى القدس وذاقوا الاستعباد والذل والهوان وأحرق البيت المقدس فإن ذلك أيضاً لم يكن بالإمدادات السماوية بل كان على يد ملك بابل « بختنصر » ، ثم كان الهجوم على البيت المقدس فى عام ١٦٨ قبل الميلاد مما جعل اليهود مستعبدين أذلاء مرة أخرى وأحرقت صحفهم السماوية . وفى هذه المرة أيضاً لم تكن العقوبة بيد الوسائل غير العادية ولكن ذلك كان بواسطة ملك الشام (انطيوخس الرابع) « Antiochus » الذى صب جام غضبه على اليهود ، ثم دخل المحتلون الأجانب فلسطين مرة أخرى فى عام ٦٣ قبل ميلاد المسيح ، فتوغلوا فى البيت المقدس وأخضعوا اليهود . وبديهي أن الذى فعل ذلك لم يكن مخلوقاً سماوياً بل كان فاتحاً رومياً يدعى (بومبي Bompey) ثم شنت غارة شعواء على بيت المقدس فى عام ٧٠م ودمر هيكل سليمان وتحولت المدينة المقدسة إلى أنقاض وبلغ عدد الضحايا من اليهود نحو مائة وخمسين ألفاً ، وجعل الباقون عبيداً مستضعفين .. وفى هذه المرة أيضاً لم يظهر الملائكة بل حقق الله العقوبة بواسطة الملك الرومى (تيتس Titus) .

وقد اعتاد اليهود فى تاريخهم نسبة هذه الأحداث إلى الأعداء ولم يكونوا يحسبون أن ذلك من عند الله ، لأن الشخصية البشرية الظاهرة كانت حججاً أكبر ، ولكن القرآن والإنجيل يصدقان على أن تلك العقوبات كانت من عند الله ولو كانت الأيدي الإنسانية هى التى تعمل فى الظاهر ، ولو أدرك اليهود أن جميع هذه العقوبات هى من عند الله لنشأت فيهم روح العبادة والتوبة ، ولكنهم رأوا أن هذه الاضطهادات إنما هى نتيجة الدسائس والمؤامرات فتولدت فيهم روح الغفلة ونفسية التمرد .. والحقيقة أن الله

لا يبعث عقوباته بالملائكة بل تنفذ تلك العقوبات بواسطة البشر لكي تسترخي سدول الامتحان على وجه الحقيقة ، ولكي ينتبه العقلاء ويصلحوا مشيئتهم ، وأما الذين غرقوا في ظلام الغفلة والجهل فلن يزدادوا إلا ظلماً وعدواناً .

ودار التاريخ.. وظهر المسلمون ، وأصبحوا - أيضاً - في عصرنا الحديث - يوجهون التهم واللوم إلى غيرهم فبذلك نشأت فيهم فكرة سلبية لا تمت بصلة إلى الحقيقة ولم تتولد فيهم عقلية تقوم عليها جهود مجدية صالحة.

ولأن المسلمين اعتادوا أن يروا الأوضاع من جهة أنها (مؤامرة) فقد أصبحوا لا يرون خطأهم في أمر من الأمور وأخذوا يوجهون اللوم والتهمة إلى الآخرين ونتج عن ذلك أن فكرتهم الدينية أصبحت موجهة إلى السياسة - فقط - غير أن الفكرة الدينية في الواقع يجب أن تكون موجهة إلى الآخرة - أولاً - وبالتالي أصبح المسلمون أمة خالية من الشخصية ، إذ أن الشخصية تتولد من الشعور بالمسئولية ، وقد أصبح الشأن في المسلمين أنهم لا يعرفون أية مسئولية ولا يدركون أى واجب .. وحسبهم فقط أن يطالبوا بالحقوق .

ونتيجة لذلك فقد أصبح منهج المسلمين في هذا الزمان منهجاً (قومياً) بدلاً من أن يكون منهجاً نابعاً من (المبدأ) وحده ، لأن الشعب الذي يعتبر الآخرين خصوماً له يغدو منهجه (قومياً) وإن هذا الوضع قد يقضى إلى الاقتتال والتخاصم بين المسلمين لأن المسلمين عندما لا يقدرّون على منازلة شعوب أخرى عسكرياً فإنهم يتخاصمون فيما بينهم لإطفاء لئار العداوة في قلوبهم وإرواء لئرة الصراع المتأججة في صدورهم.

وإن الخسارة الفادحة التي تنتج عن هذه الفكرة الخاطئة هي أن المسلمين تخلوا عن فكرة (الدعوة) التي هي مقصد وجودهم وغاية إخراجهم إلى حيز الوجود ، فالمسلم الذي يدعو الناس إلى دين الرحمة والهداية ، يحترق قلبه ويتفجر شفقة ورحمة بهم ، ولكن لما اصططح المسلمون على فكرة المؤامرات والدسائس ، تكونت فيهم نفسية موجهة ضد الآخرين ، إنها نفسية الكراهية والحقد وأخذ الثأر ، فإذا كان هذا حالهم ، فكيف يمكن لهم أن يقوموا بعمل الدعوة بإخلاص وجدية .. أجل كيف يمكن للقلب الحاقد نشر الحب وللعقل المظلم نشر النور !!

الوعنى الفكرى الصحيح

لقد ورد فى القرآن الكريم « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » (الأعراف : ٩٦) .

وقد ورد نفس المعنى فى اليهود فقال : « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » (المائدة : ٦٦) .

فلماذا هذه الخيرات والبركات والنعم لمجرد الإيمان بالوحي ؟ ..
بعض الناس يحسب أن هناك طلاسماً سحرية تكمن فى كلمة الإيمان ، وتفتح أبواب الكنوز بمجرد حركة اللسان كما كان باب الكثر يفتح بكلمة (افتح يا سمسم) فى الأسطورة المروية عن سالف العصر والأوان .

ولكن هذه الفكرة لا تشوبها شائبة من الحقيقة فلو كانت هذه البركات تتوقف على حركة اللسان فإن المسلمين يلهجون بكلمة الإيمان اليوم أكثر بكثير من قديم الزمان لأن اللاهجين بكلمة الإيمان يشارف عددهم مئات الملايين فى العالم ، ولكننا نعرف أن المسلمين رغم هذه الكثرة الكاثرة والأغلبية الساحقة لا يجدون سبيلاً إلى بركات السماء ولا إلى بركات الأرض .

والحقيقة أن الأمر ليس بهين وليس كما يفهمه الناس ، فإن كلمة الإيمان فى هذه الآيات ترادف الثورة الفكرية ، والذين آمنوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - من القرون الأولى كانوا يعرفون أن الإيمان فى الواقع إرادة فكرية وعزم صميم مصدره الشعور ، ويمكن إدراك هذه

الحقيقة بسهولة إذا ما رأينا المدارك العملية للإيمان بالنسبة لليهود أو العرب
المشركين .

ونحن الآن عندما نذكر اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم نتذكر
ذلك الرجل العظيم الذى أحيطت به هالة العظمة فى التاريخ الذى يمتد إلى
أربعمائة وألف سنة ، ولكن ذلك الرجل لم يكن إلا « محمد بن عبد الله »
إبان بعثته .. فإن تاريخه المجيد لم يكن قد ظهر بعد آنذاك ، بل كان
مستوراً وراء حجب المستقبل ، وكان الناس ينظرون إليه كشخص عادى .
أما اليهود والمشركون فكانوا يعتزون بدين صلب عوده واستقر مكانه .
لقد كان اليهود يعتقدون ديناً يتألق بتاريخه بأسماء الرسل مثل موسى وداود
وسليمان عليهم السلام . وقد انغrust هذه الأسماء فى أعماق الأذهان منذ
فترة طويلة من التاريخ . وكذلك كان حال المشركين فقد كانوا ينسبون
أنفسهم إلى إبراهيم وإسماعيل وبالتالى كانوا يعتبرون أنفسهم وارثى الكعبة
ودين إبراهيم الخفيف ، وهذه اعتبارات كان لها وزن وأثر وقد بلغت
من الأهمية مكاناً كبيراً .. ومجمل القول إن نبي الإسلام كان يقف فى
بداية انطلاقة تاريخية فى حين أن اليهود والعرب كانوا يقفون فى ضوء
شعاع التاريخ الوهاج .

وبناء على هذه الحقيقة فلم يكن الإيمان برسول الإسلام الذى ولد قبل
أربعة عشر قرناً والوقوف إلى جانبه أمراً بسيطاً وميسوراً ، بل كان خروجاً
عن دين استقرت دعائمه ، ودخولاً فى دين لا يعبأ به أحد ، وليس له
تاريخ مجيد مشرق القسمات والملامح . لقد كان الأمر تخلياً عن صداقة
تندرع بالمصالح وتلتفع بردائها إلى صداقة لا علاقة لها بالمصالح والمنافع ،
وكان الأمر فى الحقيقة - أيضاً - ارتفاعاً عن الأجداد الرخيصة المادية إلى

أعجاد العظمة غير المادية . ونظماً للمستقبل المرتقب الذى يتسامى فيه الإنسان عن الآلهة الملموسة إلى الإيمان برب غير ملموس .

لقد كانت هذه الخطوة مغامرة كبيرة ، ومثل هذا الحادث لا يحدث فى حياة الإنسان ، وكأنه خروج من غرفة ودخول لغرفة أخرى ، بل يحدث أشبه بالزلزلة ، وأقرب إلى الانقلاب فى التفكير ، فينبذ الإنسان شيئاً بإرادته ويمسك شيئاً آخر بإرادته أيضاً ، وتتحرك فيه إرادته وتستجاش كوامنه وتموج سواكنه ، يمشى فى طريقه لعبور جسر من التضحيات بكل غال ورخيص ، وللوصول إلى طريق آخر بنجاح يهتز فيه كيان الإنسان كما تهتز الشجرة التى تحركها موجات من الأعاصير ..

فإذا ما اختارت مجموعة بشرية فكرة أو دعوة على هذا النحو الانقلابى فسوف ينبثق - من جراء هذا - إلى حيز الوجود وعلى سطح الأرض شعب جديد فى أخلاقه وسلوكه وحركته .. يختلف عن أبناء جنسه الآخرين ومن هؤلاء الأفراد يتكون مجتمع جديد غير مسبوق النظير ، يكون مؤهلاً ليأتى بالعجائب وليصنع المعجزات على وجه الأرض .

عندما نادى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - العرب إلى الإسلام كانت الأديان الأخرى موجودة ومتأصلة فى المجتمع وكانت المصالح مربوطة بها ومعتمدة عليها ، ولكن الإسلام لم يكن فى ذلك الوقت إلا مجرد فكرة أو دعوة لم تترجم إلى الواقع بينما كانت الأديان الأخرى - كما أئنا - مراكز منظمة راسخة الجذور ، وفى مثل هذه الحال فإن الالتزام بالإسلام يعنى التضحية بكل شيء والتنازل عن كل مصلحة فى ذلك المجتمع المحارب للفكرة .. هذا بينما كانت المصالح مصونة ومضمونة بالانتماء إلى أديان أخرى حيث يكون معتقها شخصاً محترماً فى المجتمع ، لكن هذا (المحترم)

ما إن يتخذ الإسلام عقيدته ومنهجه حتى يصبح شخصاً غير محترم لأن دينه لم يكن قوى ساعده ولم يصلب عوده ، بل هو دين يحرمه من المنافع الذاتية والقومية .. وفي هذه الظروف كان اعتناق الإسلام يحتاج إلى عزم أكيد وقرار حازم جرىء ، ولهذا كان الذين اعتنقوا هذا الدين في هذه المرحلة إنما اعتنقوه بسبب هزة شديدة حدثت في أغوار نفوسهم ، فكان هذا الاعتناق انتفاضة فكرية بالنسبة لهم ، إذ بدأوا يفكرون في إعادة النظر في معتقداتهم القديمة المتوارثة .. حينئذ اتخذوا القرار وعقدوا النية ، فنبذوا تلك المعتقدات الجاهلية وراء ظهورهم وعزموا على ألا يرجعوا إليها مهما كانت الظروف ، واختاروا ديناً عضوا عليه بالنواجذ .

وبهذا العمل مزقوا ستار العصبية وغضوا النظر عن المصالح ، وأهملوا المنافع المادية الرعناء ، وخاطروا بأنفسهم ، وأصبحوا منعزلين عن عشايرهم وقبائلهم وأسراهم ومجتمعهم .. ثم هاجروا من أرض التقليد الميت عن وعى واستوطنوا - عن إرادة - أرض العقيدة الحية .. أجل : كان الإسلام بالنسبة للمسلمين في العهد الأول انقلاباً فكرياً ، لذلك فقد ولد هذا الانقلاب مجموعة بشرية انقلابية ، بينما أصبح الإسلام بالنسبة لمعظم مسلمي اليوم عقيدة ميتة لا حراك فيها ، وصار الأفراد الذين ينتمون إلى هذا الإسلام يكونون مجموعة بشرية خاملة كالحلثة الهامدة فليس فكرهم حياً ولا عملهم منتجاً .

لقد جاء في الحديث (بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء) فإذا أمعنا النظر في هذا الحديث فسنرى أن التاريخ قد عاد القهقري إلى ظروف ميلاد الإسلام الأولى ، فالبنون شاسع في عصرنا بين الدين المحفوظ في القرآن والدين المتبع بين مسلمي هذا الزمان ، فلذا سمي أولهما :

(الدين الكتاني) وآخرهما : الدين الاجتماعى ، وإن الدين الحقيقى للنلمسه فقط فى الكتاب والسنة ... لقد أصبح هذا الدين غريباً كما كان ، فعاد كما بدأ ، بينما أضمحى الدين الموجود والمنظور فى المجتمعات والبيئات المعاصرة مجرد هيئة منظمة اجتماعية ، كما كانت الأديان الأخرى إبان البعثة .

ونحن نرى أن الحركات الإسلامية القوية فى هذا العصر تخلد إلى أرض هذا الإسلام المنظور الملموس ، ولو أنها تتباين وتختلف فى شعاراتها وهتافاتها بين المطالبة بإسلام جزئى أو إسلام كلى .. ورغم هذا الاختلاف فى المطالب فإن جميع هذه الحركات نشأت ونمت على سطح الدين الاجتماعى الموجود وليس على سطح الدين الكتانى الحقيقى ، فأصبح إسلام اليوم مطية وسنداً للوصول إلى القيادة والسيادة ، أصبح محلاً تجارياً لجلب المنافع ، وسوقاً من الأسواق يمكن بها استدرار الأموال والحصول على ما لا يمكن إحرازه من الأسواق الدنيوية العامة .

إنه يمكن بالإسلام استجاشة العواطف والحصول على التبرعات ، وملء صناديق النذور . كما يمكن بالإسلام حشد جمع غفير من الناس والإدلاء بالكلمات الرنانة بين أيديهم .. والغريب أن اليهود كانوا على نفس المنهج الذى نرى المسلمين الآن سائرين عليه فى كل مكان .

ومن جانب آخر نشاهد الدين الحقيقى قد أصبح مغلفاً بين دفتى الكتاب ولا وجود له إلا باعتباره صورة فكرية ومجرد خيال .. لقد أصبح الدين غريباً بين أتباعه والمتحمسين له .

وفى مثل هذا الواقع القاسى المرير عندما يعتقد شخص مسلم الدين الإسلامى الحقيقى يعتنقه على حساب شعبيته ومكانته فى المجتمع فيحسبه الناس مبتدعاً ديناً جديداً ، فلا توجه إليه الدعوة فى المؤتمرات الدينية ،

ولا يرجى منه أن يتفضل مشكوراً لإلقاء كلمته في (الاحتفال القرآني) ولو كان قد أمضى عمره في دراسة القرآن والتأمل فيه ، ولن يقدم له منصب « شيخ الحديث » في معهد من المعاهد الدينية ، حتى ولو كان هو شخص البخاري ومسلم أو كان قد أمضى عمره في دراسة كتب الحديث وعلوم السنة ، ولن يعد من صفوة العلماء الربانيين حتى لو كان في مكانة رنية من الورع والتقوى ، ولن يعتبر أهلاً للقب ديني حتى لو كرس حياته للإسلام وخدمته .

ومرد ذلك أن ذلك الشخص يكون ثابتاً على دين الكتاب والسنة ، وناقماً على الدين الاجتماعي الموجود في كل مكان .. ذلك في عصر أصبح فيه دين الكتاب والسنة غريباً بين أتباع الدين الاجتماعي التقليدي ، أعنى هذا الشيء الذي يحسبه الناس ديناً بينما هو مجرد مظاهر وصور وليست من الحقيقة الربانية العميقة في شيء .. إن هذا الدين مأخوذ من التقاليد والعادات وليس نابعاً من مصدرى الوحي (الكتاب والسنة) .

الضربة القاضية

« لعبة كيرم » تعد من الألعاب المتزلية المعروفة وتلعب على لوحة خشبية يرتب في وسطها تسعة عشر قرصاً يشبه في حجمه عملة القرش أو الروبية ، والمبادر في هذه اللعبة يضرب بالقرص الضارب من زاوية اللوحة على جميع الأقراص . وائن كانت هذه الضربة تقع على نقطة واحدة لكنها إذا كانت ناجحة تسمى (عمل الأستاذ) أو ضربة « المعلم » ، وحرك كل قرص من مكانه ليدخل الشبكة ..

والحق أن عملية إحياء الدين الحقيقي تحتاج إلى مثل هذا العمل الأستاذي أو إلى « ضربة المعلم » حتى يحرك هذا العمل الكبير (ضربة المعلم) كل

شخص من مكانه ويثير فكره ويلهب عقله فيتمكن من أن يكون مؤهلاً للتفاعل مع الدين الحقيقي الموجود بين دفتي الكتاب والسنة الشريفة .

ولقد كان هذا هو نفس الأمر الذى وقع فى فترة بعثة النبى صلى الله عليه وسلم - وإن إعادة هذا الواقع إنما هو التجديد الحقيقى للدين فى هذا الزمان ، وليست حقيقة تجديد الدين إلا إعادة عمل النبوة ، فقد كان النبى قد أحيا فى عهده دين الله مقابل هيكمل جامد للأديان الأخرى ، ويحتاج دين الله فى هذا الزمان إلى شخص يهضمه روحاً وقلباً ويتمثله حياة مقابل هيكمل قائم للإسلام راج بين المسلمين وبدون إكمال هذا العمل لا يتوقع أن يتكسر جمود الناس فى الدين وأن يتحول الناس عن شخصيات

وهيئات ومراكز إلى دين الله مباشرة ليفهموا أن الأمور الأساسية هى الدين وينبؤ دينهم على أساس الحقائق بدلاً من أن يعتمدوا على الكرامات والطلاسم ليدققوا لذه الدين الحى الفعال وليهجرُوا الأعمال الخاوية من الروح .. وليدخل الإسلام فى أعماقهم كقوة محرّكة ولا يكون كذيل أو « خاتم ماسى » فى اليد لا عمل له فى حياة الإنسان ، وليتدققوا حقيقة التقوى بدلاً من أن يعتبروا بعض الأعمال الصناعية ديناً ، وفى هذا الإيمان الصحيح يكمن حل أكبر معضلة تواجه المسلمين فى الوقت الحاضر ، وهى المعضلة التى جعلت الإسلام يبدو جزءاً من حركات قومية يقوم بها المسلمون لأغراض مادية من أغراض الدنيا حتى أصبحوا فريسة الأمم والشعوب الأخرى .

ولقد كان من الطبيعى أن ينظر المسلمون الخاضعون للمنطلق القومى إلى الشعوب والأمم نظرة الازدراء والحقد والكراهية . وبالتالى تولدت من جراء ذلك نفسية قوامها الصراع والتزال والأنانية وأصبح المسلمون لا يطرِبهم إلا ما يروج عن بطولاتهم الحربية أو العسكرية فى التاريخ ،

فتألق بذلك « التفسير العسكرى » للإسلام والحديث عن مميزات النبوة بمصطلحات الحكم والسياسة وإشعال نار الفوضى والشغب ضد الأمم الأخرى فضلاً عن اعتبار هذه الأمم عدوة ظالمة مغتصبة والإعجاب بأساليب الحرب والنضال بدلا من المسالمة والتروى ما أمكن . وقد بلغ ذلك حداً بدأ الناس معه ينظرون إلى كل نداء يدعو إلى الآخرة والدعوة إلى البناء المهادف بهدوء رصمت وروية على أنه مؤامرة وشاغل عن الثغور ، والجبهات أمام أعداء الإسلام ، ومببط للهمم ومخدر للقوة وداع إلى تفاهة الأمور التي لا أهمية لها ولا أولوية . ولو أقيم الدين الحقيقي على أساس من الحقائق الأبدية وفصل عن هيكل الإسلام الصناعي التقليدي فستهوى هذه الأفكار وتسقط على الأرض .

إن التعبيرات القومية والوطنية للإسلام تعجب الشخص إذا كان فكره منطلقاً من الوضعية القومية ، ولكن إذا بدأ الإنسان يعيش في إطار تعاليم الإسلام فستتلاشى جاذبية هذه التأثيرات القومية ..

إننا أحوج ما نكون إلى هذا الوعي الفكرى أو الثورة في التفكير ، إن نقطة الانطلاق الوحيدة لأى عمل حقيقى هى التوعية الصحيحة وهى الإقامة الحقيقية لأفراد هذه الملة الإسلامية على أرض الإسلام الحقيقى المنزل في الكتاب والسنة ، وهى - فى الوقت نفسه - تصحيح لمسار ذلك الاتجاه الذى يجعل الإسلام أشبه بالمذهب الاجتماعى التقليدى .

وعندما يبلغ هذا العمل حداً ملموساً نحو الغاية المنشودة فسيحدث في المسلمين شعور ربانى وسلوك إلهى .. وقبل الوصول إلى هذا المقصود الأول يكون اقتحام المخاطر والقيام بعمل كبير مزاو لا يمكن إلا لإنسان سلب لبه وضاع عقله وخلا من الإخلاص .

والحقيقة .. أن جميع الأهداف التي نتمنى تحقيقها إنما هي النتائج والمحصلات الثانوية لهذا التغيير الفكري ، وإن كافة النتائج التي نترقبها ونحن إليها سوف تنبثق من بطن هذا الانقلاب الفكري الذي سيتمكن - بإذن الله - من تحطيم أغلال مئات الأوهام التي أحاطت بحياتنا فينتج من ذلك أن يزداد النشاط العلمي ويمنح هذا التغيير جرأة وقوة معنوية للأفراد فيقومون بالمهام التاريخية والأعمال المختارة في مجالات شتى ، وقد ينشئ هذا الانقلاب سعة أفق وامتداد طموح في الناس فيخطون خطوات لا يخطوها غيرهم ، ويستثير هذا التغيير الوعي الرباني في الأشخاص ، فيتمكنون من القيام بتخطيط يفوق كل تقدير ، وبالتالي فلا يمكن لألد الأعداء أن يخرق هذا التخطيط أو يقضى عليه ، وسوف ينجح هذا التغيير في تسخير الشعوب والجاليات والمجتمعات تسخيراً حسناً فيصبح لأصحاب هذا التغيير مواقفهم المحيطة على وجه الأرض.

ومجمل القول عندما يتحقق هذا التغيير فستنفجر ينابيع الرزق من الأرض وتنهض أمطار الفضل ، ويكتب الله لهذه الأمة السيادة في الدنيا كما يكتب لها الفوز في الآخرة والخلود في الجنة .

حكمة تتابع الشرائع :

إن مقاومة الجمود الديني مطلب أساسي يطالبنا به الله تعالى .. وهذا هو سبب تتابع الشرائع واختلافها في التفاصيل لدى جميع الرسل . لقد كان الهدف هو تجاوز الجمود الديني ، وقد نص على ذلك القرآن حيث يقول : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات » (المائدة : ٤٨) . وقال تعالى : « لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنك في الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم » (الحج : ٦٧) ..

وهذا هو الهدف الذى من أجله جاء الأمر بتحويل القبلة : « ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات » (البقرة : ١٤٨) .
وبوضوح أكثر : « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » (البقرة : ١٤٣) .

وقد اصطلح بعض العلماء على استعمال مصطلح (التدرج) لتوضيح الفروق بين الشرائع ، وهم يريدون بذلك أن شريعة الله سارت على دروب الرقى متدرجة من البساطة نحو الكمال .. وهذا هو السبب - فى رأيهم - لوجود فروق فى التفاصيل بين الشرائع ، مع أنه فى الحقيقة لا أساس لهذا التفسير ، وقد أبان القرآن بوضوح أن سبب تغير الشرائع إنما هو « الابتلاء » وليس « الارتقاء » فإن الشكل الظاهرى للشريعة إنما يعنى الإظهار الحى للعقائد الدينية ، ولكن الشريعة ربما تفقد روحها وحيويتها بمرور العصور فتتحول إلى هيكل جامد انفصلت عنه الآصرة الروحية والنفسية والإنسانية ، ولهذا فإن الله سبحانه ينسخ الهيكل القديم للشريعة ، ذلك الذى آل مرة إلى عما تقليدى جاف ويغيره حتى يتجدد به الإيمان وتتقوى به روح الدين ، والناس - بالتالى - شريعة جديدة بوعى جديد وتصميم جديد .

وفى تلك المرحلة الدقيقة الحاسمة يتضح الفرق بين من « وشعور » ومن يعبد الله جرياً على العادة والتقليد الجامد .

إن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة مثال

نص القرآن على حكمة هذا التغير « لنعلم من على عقبيه » (البقرة من الآية ١٤٣) . والحق

بين من يتبع الحق ومن يتبع المراسم و

المراسم والتقاليد يظل خاضعاً لعصبيت

ذلك المنهج التقليدى ، ويصحح مسار

الدعوة الإسلامية

عندما يأتي موسم المطر وتهب الرياح الباردة ، وتبتل السماء بالغيوم يعلن ملك من ملائكة الله تعالى أن الذى يبذر بذوره فى الأرض فسوف يهيء الله له نظام الكون لتعود بذوره بنائدة مقدارها سبعمائة ضعف . وهكذا حال الدين فى هذا العصر ، فإن الله جمع جميع الأسباب لدعم الدين وغلبته فبعد مرور قرون متتالية من الزمان ، ظل الأساس الذى تقرر منذ مئات السنين يلاثم الدين ويؤيده حتى يقوم عباد الله من المؤمنين لتحقيق الإمكانيات التى وفرها الله لهم ويكرسوا جهودهم لهذا الهدف النبيل . أجل إن الذين يكرسون حياتهم لتحقيق هذه المهمة فسوف يعطيهم الله أجراً عظيماً فى الآخرة يعادل أكثر من سبعمائة ضعف أو أكثر وينعم عليهم فى هذه الدنيا أيضاً بالقوة والتكين فى الأرض .

لقد اجتاز العالم الإسلامى مرحلتين وهو على عتبة باب المرحلة الثالثة ، فليت شعرى من هم الذين سيسجل التاريخ أسماءهم بمداد من نور . . فتلك بدون شك أكبر مهمة على وجه الأرض . فليتنافس فى ذلك المتنافسون وليضحوا فى سبيل ذلك بأرواحهم وأموالهم .

ما هو الإسلام ؟

يكمن سر الإسلام فى كلمة التوحيد . فكما أن الشجرة ليست إلا بذرة صغيرة فإن الإسلام أيضاً حقيقة التوحيد وما بقى منه إنما هو مظاهر التوحيد أو متطلباته . والتوحيد فى الظاهر هو أن الله (واحد) وليس أكثر ، ولكن التوحيد فى الحقيقة ليس مسألة تنتمى إلى باب العدد والحساب ، إنما هو بالنسبة للإنسان إثبات ذات الله تعالى على حساب نفى ذاته ، رقة ربه ومعرفة نفسه والإيمان بأن الله قادر مطلق ، والعبد بالنسبة لله

عاجز مطلق ، وعندما يعرف الإنسان حقيقة هذه العلاقة بالله تبارك وتعالى فسوف يدرك حقيقة التوحيد ، فالتوحيد والإيمان بالله إرادة واعية من الإنسان ، تعنى الاستسلام أمام الحق ، مع القدرة على الإدراك ، وإن الإيمان هو الاعتراف بالحقيقة والاعتراف بالذى يوحيه الوحي وهو أكبر بر وحسنة فى هذه الدنيا .

هذا هو التوحيد الذى يدين الكون له بمجملته .. إن الأرض والشمس منقادان لله تعالى على وجه كامل تام ، ولا تحيد النحلة عن الطريق التى وضعها الله لها ، ولكن الأرض والشمس أو النحلة كل منها لا تعمل ولا تؤدى واجباتها بأمر من شعورها وإرادتها بل لأنها جبلت فطرة على هذا الأمر أو سبرت مجبرة على هذا الطريق ، لا عن علم أو عن عمد أو قصد ، وإن الإنسان وحده هو الكائن الحى الذى يجعل نفسه محكوماً بإرادته وشعوره ، وكل شئ فى هذا الكون - ما عدا الإنسان - يطيع أمر الله بوجه تام وهو مجبول عليه ولكن طاعة الإنسان - وحده - كما ذكرنا - هى من اختياره . وهى من حبه ورغبته وليس من قهره وإرهابه .

والقرآن يعلمنا أن الأرض والسماء وما بينهما تسجد لله تعالى ولكن الإنسان عندما يضع رأسه على الأرض ساجداً لله فإن هذا العمل بنفسه عمل جد غريب لا غرابة بعده على وجه الأرض ، لأن الأشياء كلها تسجد لله بدون قصد وإرادة ، والإنسان يسجد لله عن عمد وبقصد وبشعور وإرادة وبدون إكراه ولا إجبار .

وليس ثمة حادثة موجودة فى هذا الكون أهم وأكبر من تلك التى تقول : إن كل شئ فى هذا الكون عاجز بالنسبة للقدرة بها الإله ، فهذا العجز الكونى ما هو إلا « صفر » مجرد الذى يدل على القدرة والقوة .. فوجود شخص موحد

ويؤمن بهذه القدرة هو أكبر حادث يحدث تحت أديم السماء .. وصاحبه يستحق أفضل الجوائز والتقدير .

حقيقة الجنة :

إن الجنة عالم عجيب خلقه الله لعباد المطيعين وسوف تتجلى في هذا العالم صفات الله تعالى الكمالية بكل وضوح وجلاء ، وقد جاء في القرآن عن أصحاب الجنة : « ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وهذه ميزة عجيبة إلى حد الإعجاز ، لأننا نرى أنه لا يمكن لشخص أياً كان ، وأينما كان في هذا العالم أن يعيش حياة لا تشوبها شائبة الحزن والخوف .. وقد جاء - أيضاً - في القرآن : « تحيتم فيها سلام » وهذه الكلمات تدل على أن الجنة تكون موطناً لزمرة من الناس الذين لا يضمرون في أنفسهم شيئاً من أحاسيس أو مشاعر سلبية ، وقد ذكر في الحديث عن الجنة أن الإنسان إذا تناول غذاء أو مشروباً في الجنة فلا يخرج الغذاء والمشروب بطريقة الإفراز (البول والغائط) ، بل سيخرج هواء يفوح بعطر ويزيل ما لحق بالإنسان من أذى ، وهذا يدل على أن الجنة مقام لطيف حيث تخرج حتى فضلات الأغذية بشكل رائحة طيبة .

وقد ورد في الحديث أن الإنسان لن ينام في الجنة التي ستتحقق فيها مطالب الإنسان ، وهذا يعني أن الجنة تكون مليئة بالمتعة واللذة لدرجة أن الإنسان لن يضيع فيها ولو مقدار نوم ليلة حتى وإن عاش ملايين السنين فيالها من لذة ومتعة لا توصف .. وفوق ذلك كله سوف يرى الإنسان خالقه صاحب الحول والطول والفضل والمنة الذي له الأسماء الحسنى وله ما في السموات والأرض وله سائر الصفات الكاملة ..

هذا هو المكان الذي لم يخطر على قلب بشر فنعم المولى ونعم النصير
ونعم المكان ونعم المصير ..

الحياة الإيمانية

إن هذه اللجنة لا يمكن أن يحصل عليها إنسان بضمن زهيد وإنما هي الجائزة لروح مطمئنة مؤمنة أثبتت إيمانها بكل طرق الإثبات . فإن الإيمان ليس أمراً هيناً ولا يكون الإنسان مؤمناً بممارسة بعض الواجبات الإسلامية مع الذوبان في الحياة الدنيوية العادية . إن الإيمان ليس عملية تركيب لحام شيء بشيء وترقيع عمل بعمل .. بل معنى الإيمان أن يصنع حياة الشخص بصيغة الإيمان ، حتى يضم الإيمان بين جناحيه سائر نواحي الحياة .. إن الإسلام ليس بمثابة (خنصر) بيد الإنسان بل هو (يد) الإنسان بكاملها فمن جعل الإسلام ذيلًا فقد أهان الإسلام وهون من شأنه ، وفي المقابل فإن الإسلام لا يطلب من شخص أن يلعب دور الضابط العسكري ، أو يقوم بدور الشرطي المعارض للحكام ، ويحسب أنه يحسن صنعاً ، ويؤدي واجباً إسلامياً .. إن هذه السياسة وضعية لا تمت بصلة إلى الإسلام وإن هذا الأسلوب جرم يقترف بحق الإسلام ، بل هو جريمة للتحويل من شأن الإسلام .. وهو جزء من حركة تحريف الدين .

وكلا الأمرين (التلفيق في الدين أو التحول إلى شرطي وقاض وليس داعية) يثيران الغضب لا الرحمة من الله سبحانه وتعالى .

إن المؤمن شخص دخل في قلبه الإسلام على هيئة طوفان نفسي جعله يجد ربه أقرب إليه من حبل الوريد ، إنه إنسان انشغل بمناجاة ربه ، وغمرت خلوته بذكر الله ، ولجم الإسلام لسانه فظل صامتاً لا يتكلم إلا عن ضرورة ، وفي يديه ورجليه أغلال من خوف الله ، إنه يشاهد ميدان الحشر قبل ساعة الحشر .

والواقع أن الأمر الذي يشاهده الكافر بعد موته يجربه المؤمن قبل موته فالؤمن يعرف - من دينه - في حياته ما لا يعرف الكافر في حياته . إن الكافر سوف يراه - فقط - عندما تتمزق أستار الغيب أمام عقله ، فيصبح الغيب أمامه مشهوداً مكشوفاً .

الدعوة الإسلامية

إننا نعبر عن هيب النار عندما يدركنا لظاها بكلمة (الحرارة) .. ونعبر عن إحساسنا بالثلج عندما نشعر بصقيعه بكلمة (البرودة) .. وهذا هو شأن المؤمن مع الإيمان ، فإن الإيمان لابد أن يجعل نفسه محسوساً في الخارج ، يشعر المسلم الناس بحرارته ولهذا فوجود مؤمن على أية بقعة من الأرض يجب أن يكون ضماناً لاستمرارية الدعوة الإسلامية فيها ، فإذا دخل الإيمان قلب الإنسان فلا بد أن يظهر أثره في الخارج .. وهذا هو معنى الدعوة الإسلامية .

إن الدعوة الإسلامية تتوخى إيجاد تغيير في الفرد لا إيجاد زعزعة في الكيان القوي أو الدولي . إن التغيير الإسلامي بمثابة ثورة نفسية أصلاً ، وبما أن الثورة النفسية لا تحدث إلا في نفس الإنسان ، فكذلك يتركز تأثير الإسلام - أولاً - في الفرد . والواقع أنه ليس للكيان القوي أو الدولي أي وجود نفسي إلا من مجموع الكيانات الفردية . وإذا استهدف كياناً وطنياً أو دولياً للدعوة الإنسانية فكأنما رى بسهامه في الفضاء رجماً بالغيب .

وربما نجد الأوضاع القومية أو الجغرافية تدفع بعض الناس إلى الحركة والنشاط ، لكن إذا قدر وبدأت الحركة في المجتمع الإسلامي نتيجة لهذه الأحوال السياسية أو القومية فلن تسمى تلك الحركة حركة إسلامية .

وكذلك انطلق المسلمون في صراعاتهم مع العدو منطلقاً قومياً لكنهم عبروا عنه بكلمة (الجهاد) أو إذا شرح المسلمون صراعاتهم القومية بمصطلحات الدين ، فإن هذا التفسير أو الشرح لا يمتان بصلة إلى الإسلام . ويكون تسمية ذلك إسلاماً ، تسمية غير حقيقية .. وهذا يستوجب العقاب ولا يستوجب الرحمة أو النعمة . ومن هنا فنحن نرى أن كثيراً من الحركات الإسلامية التي برزت إلى حيز الوجود في هذا العصر لم تنل أية فائدة ، كأنها لم تفرز بأية درجة عند الله ..

والحق أن كثيراً من هذه الحركات مجرد قلاقل واضطرابات وطنية لا علاقة لها بالإسلام الحقيقي . إن حركة الدعوة الإسلامية هي حركة الدعوة إلى الجنة .. والجنة مكان لطيف ونفيس سيعمرها أشخاص تخلقوا بأخلاق الله وقاموا بشهادة الحق في علاقاتهم اليومية وتحركوا بدافع من الآخرة لا من أجل هدف سياسى أو اقتصادى (١) .

إن هذه الدنيا دار ابتلاء واختبار ولا يدخل الجنة إلا من فاز في هذا الاختبار وأثبت أنه يستحق الفوز بالجنسية في « الجنة » (٢) . وأما يقية الناس فيرفضون ليعيشوا في هوة الظلام مطرودين من رحمة الله .

إن العالم الكونى جميل وجذاب ما عدا عالم الإنسان .. انظر إلى عوالم الزهور والرياحين وإلى الأشجار الباسقات الوارفات الظلال ، وانظر إلى المناظر الطبيعية الممتدة بين الأرض والسماء .. إنها تأخذ بمجامع القلوب

(١) بل الأهداف السياسية والاقتصادية وسيلة للآخرة .. لكنها وسيلة ضرورية (المرجع) .

(٢) تعبیر جنسية الجنة تعبیر لطيف .. وهى جنسية مؤهلاتها التقوى لا الفنصرية (المراجع) .

ويود الإنسان أن يراها دون أن يغمض جفنيه ، ولكن على العكس من ذلك
دنيا الإنسان فهي حافلة بالأرجاس والآلام والمظالم ، فلماذا هذا الفرق
بين عالم الإنسان وعالم الكون ؟ ..

إن السبب الوحيد هو أن العالم الكوني تحكمه النواميس الإلهية الكونية
دون اختيار ، ولهذا ظهرت كما شاء الله أن تظهر ، ولكن الإنسان
قد أعطاه الله الحرية ، وبسوء استعمال هذه الحرية جعل هذه الدنيا جحيمًا .
إن الله هو مالك جميع الخيرات والطيبات فإذا نفذ إرادته تكونت (الجنة)
وإذا أمسك إرادته تكون الجحيم .

والسؤال المطروح هنا هو : لماذا عرض الله هذه الدنيا للخطر بإعطاء
الإنسان حرية التصرف ليتصرف فيها كيف يشاء ويحول هذا العالم الجميل
بسوء تصرفاته وفساد أعماله إلى دار عذاب ؟ ..

والجواب أن ذلك للاختبار والاختيار .. فالفائزون من بني آدم
يستحقون الإقامة في دار الجنان .. والخاسرون لهم عذاب أليم في جهنم
وبئس القرار .

حقيقة أن عالم الله الواسع ينقاد له سبحانه ، بحيث لا يتعدى عليه شيء
في هذا العالم من النملة إلى الكواكب والمجرات العظيمة .. ولكن جميع
هذه المخلوقات متقادة بدون شعور ، ولا تعلم شيئاً إلا الطاعة والانقياد
وهي لا تستطيع غير ذلك ، فأراد الله أن يخلق مخلوقاً يتمتع بالحرية
فيستعمل هذه الحرية لطاعة الله بإرادة وشعور على علم وعن عمد فكان هذا
المخلوق هو هذا الإنسان .

لقد خلقت هذه الدنيا للإنسان اختباراً وابتلاء ، والحق أن قلق الإنسان
وعذابه يرجعان إلى (الفساد في الأرض) .. وفي رأى مفكر من المفكرين

أن التاريخ الإنسانى كله يبدو كأنه سجل للفساد والظلم .. فالواقع أن الإنسان يستعمل حريته للفساد فى الأرض ، وهذا حق ، ولكن الله سبحانه قدز هذا الجانب المظلم للحياة الإنسانية لأجل اختيار (النوع الأفضل) أو الزمرة المصطفاة من الإنسان .

إن الزمرة المختارة من الجنس البشرى هي النوع الأفضل ، وهؤلاء الأفراد هم الأفراد الذين كان بإمكانهم أن يكذبوا الحق فلم يكذبوه ، وكان بوسعهم أن يرفعوا راية أنانيتهم فلم يرفعوها ورضوا بأن يكونوا فى الصف الخلفى ، وأن يكون خالقهم - سبحانه - هو الأمر والنهى - لقد كانت لهم حرية أن يبنوا قصرأ لمصالحهم ، ولكنهم هدموا قصرهم بمعول الإيمان ، ورضوا أن يرفع (قصر الحق) فقط .. على وجه الأرض ، وإن الدعوة الإسلامية لترى إلى العثور على هذه الأرواح النظيفة الطيبة لتنجيها من النار ولتسوقها سوقاً إلى الجنة .

الإصلاح الإسلامى :

إن أساليب الثورة السياسية أو المدنية ليست من الأساليب التى يتوخاها الإسلام مباشرة ولكن التغير إلى الأصلح نتيجة غير مباشرة لتطبيق الإسلام . وعندما تتكون زمرة فى مجتمع ما ، تلتزم بأن تحيا لله وتموت لله ، فإنها سوف تقود العهد وحضارته بطريقة تلقائية .. فإن السياسة الإسلامية أو انظام الإسلامى عبارة عن انتقال تلقائى للسلطة إلى أيدي رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .. إنهم الرجال الذين يتذوقون حلاوة الإيمان ولا يرضون بها بديلا ، ويتنازلون عن مطامعهم وأغراضهم فى الدنيا .. وبعيئون - وهم فى الدنيا - فى نعم الآخرة .. هذه هي (الزمرة المختارة) المؤهلة لكي تسود ، وعندما ينتهى إليها الحكم تقيم الصلاة وتأمر بالمعروف

وتنتهى عن المنكر (فهذه هي دعائم النظام الإسلامى) ولا يمكن تكوين هؤلاء الأفراد إلا ببناء حركة خالصة للآخرة لا تشوبها شائبة المقاصد الدنيوية .. وعلى العكس من ذلك إذا حدث انقلاب بقوة المظاهرات أو المتفافات فلن يكون ذلك انقلاباً إسلامياً بل يكون فوضى غالباً ما تكثر فيها هتافات الإسلام بينما تفقد حقيقة الإسلام ، وسوف تتكرر فى هذا الانقلاب كلمات « العدل » و « الحق » و « الحكم للإسلام » حتى يكون هناك دوى فى الآفاق ولكنك فى الحقيقة لا تجد وراء هذه المتفافات إلا أغراضاً شخصية للقبض على مقاليد السلطة ، والإطاحة بعروش الآخرين ..

إن جميع الاجتماعات والمؤتمرات الكبيرة والخطب الرنانة التى تنسب بعنوان الإسلام أو الأخلاق أو الإنسانية ليست فى حقيقتها إلا لدعم قيادة حزبية معينة ..

إن الشرط الأساسى للنهضة الإسلامية إنما هو وجود أشخاص فاقدى الأنانية ، وهذه هى الميزة التى تفتقدها الحركات المعاصرة ، بل على العكس فإن هذه الحركات ذات الطابع السياسى والوطنى توفر غذاء للأنانية الشخصية وهى لا تستطيع أن تتأصل هذه النفسية الأنانية ، ولا تقدر أية حركة رامية إلى القيام بثورة خارجية على أن تخلق (إخلاصاً) أو طهارة داخلية أو تسهم فى تكوين خلق حسن نابع من دافع ذاتى لا من دافع خارجى ، فكما لا يكسب شخص المال لغيره فلا يمكن لشخص أن يتصف بصفات حسنة بمحركات خارجية .. والذين يعتقدون أن التحلى بالأخلاق النبيلة يمكن أن يتم باسم « النظام » إنما يقدمون الدليل على سطحتهم وبلاهمهم فقط

وظيفة الرسول :

مهمة الإسلام مهمة واحدة وهى دعوة الناس إلى التوحيد ورصد الجهود لجعل الإنسان إنساناً مؤمناً وموحداً ، وكانت هذه هى مهمة كل

الأنبياء ، ولكن دعوة التوحيد قبل بعثة النبي الخاتم محمد - صلى الله عليه وسلم - كانت تقتضى التضحية بالأموال والأرواح . والذين قاموا بمهمة الدعوة إلى التوحيد ذاقوا أنواعاً من العذاب وألقوا في النار وتمزقت أجسامهم تمزيقاً .. وكان سبب ذلك أن الشرك يتمتع بسطوة فكرية من قديم الزمان ، وحتى السياسة كانت تقوم حينذاك على دعائم الشرك ، وكان الملوك في قديم الزمان يحكمون بحجة أنهم من سلالة إله من الآلهة ، ويعتقدون بحلول ذات الإله في أنفسهم ، فعندما يدعوا الداعى - مع هذه الوضعية - إلى التوحيد وإلى الإيمان بأنه لا إله إلا الله فإنهم كانوا يعتبرون هذه الدعوة تحدياً لحكمهم ومقاومة لسلطتهم ، وكانوا يرون في هذه الدعوة رفضاً لسياستهم المشتركة وخوفاً على مصالحهم السياسية ، وكانوا يبيتون العدا لعداة التوحيد ، ويذيقونهم سوء العذاب .

لقد أراد الله أن ينتهى هذا الوضع إلى أبد الآبدين ، ولهذا أرشد الله رسوله والصحابة إلى الدعاء الذى جاء فى القرآن : « ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا » .. فإن هذا الأسلوب فى الدعاء كان يوحى بأنه سيحدث انقلاب جديد فى التاريخ الإنسانى سوف يسفر عن قطع وشيعة (الشرك) عن السلطة والحكم باسم الآلهة ، وسوف يكون الحكم بعد ذلك أمراً (سياسياً شرعياً) وليس أمراً (عقائدياً) .. وكانت هذه هى الخطة الإلهية التى بموجبها أمر الله المسلمين بقوله تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » (١) ، ومعنى الفتنة (الابتلاء) . يقال فتن فلان عن رأيه يعنى : صرف عن رأيه ، وجاء فى سورة يونس (آية ٨٣) : « أن يفتنهم » أى يعذبهم ، فإن الفتنة

ترادف الكلمة الإنجليزية « Persecution » يعنى الإيذاء أو الاضطهاد أو التعذيب من أجل فكرة أو عقيدة .

فما هى الفتنة التى أمر الله من أجلها باستئصال المشركين .. ؟ .

إنها هى فتنة الشرك ، فقد فسر المفسرون كلمة الفتنة (بالشرك) ، غير أن الشرك ليس هو الشرك على الإطلاق وإنما هو الشرك الجارح . إذ أن (الشرك الجارح) هو الذى يصبح عائقاً فمعنى « حتى لا تكون فتنة » أى حتى لا يفتن رجل عن دينه ، يعنى قاتلوا الشرك الجارح حتى يندثر وتطمس آثاره ، ويكون دين التوحيد هو الغالب والمهيمن .

إن الشرك فى صورته الأولية عقيدة بحثة ولكنه كان محور (الفتنة) فى قديم الزمان ، وكان السر فى ذلك أن الشرك فى قديم الزمان قد استولى على الفكر الإنسانى وأحاطه من كل الجوانب ... كان الإنسان فى قديم الزمان يرى كل شىء بمنظور الشرك حتى بنيت السياسة والسلطة على الشرك . كان الناس يحسبون الشمس والقمر إلهين من الآلهة ، والأسرة المالكة كانت تدعى أنها من سلالة الشمس القمر ، ولا يكاد يصدع داعى التوحيد بقول « لا إله إلا الله » حتى ينزل عليه المشركون التوازل ويصبون عليه جام غضبهم ويورطونه فى اغن والشدائد .

إن الانقلاب الإسلامى الذى حدث فى الجزيرة العربية وضواحيها قد خلع الشرك من مكانته الفكرية ، وانتزع منه النفوذ الفكرى فبات الشرك عقيدة ذاتية ، ولم يعد فكرة شعبية يقوم عليها نظام الحياة الاجتماعية ، وقد أسفر ذلك الانقلاب عن انفصال علاقة الشرك عن الحكم ولم يعد بإمكان شخص أن يدعى حق الحكم باسم الشرك ..

لقد كان هذا أول انقلاب فى التاريخ الإنسانى المعلوم ، ونخص بالذكر هنا شيئين من آثار هذا الانقلاب الكامل المحيط بجميع نواحي الحياة :

أولهما : أن الناس لما علموا أن الله هو « إله واحد » وما عداه مخلوق ومحكوم ، ماتت عقلية تقديس مظاهر الطبيعة والأشياء التى كانت آلهة تعبد ويسجد لها .. بل أصبحت (الطبيعة) خادمة للإنسان مسخرة له ، فذهب الإنسان يستكشف كنهها وحقيقتها ويستخدمها لحاجاته .. كان هذا هو (الانقلاب الفكرى) الذى قضى على عهد الأوهام والأساطير ، وافتتح عصر العلم الحديث .

وثانى الأمرين : أن هذا الانقلاب انقرض به عهد عبادة الملوك على المستوى الفكرى - على الأقل - وبدأ عهد الشورى ... ولما علم الناس أنهم سواء وليس فى أى إنسان منهم صفة الألوهية ، لم يبق لأحد حق الحكم الإلهى على وجه الأرض .

لقد انطلق (هذان الانقلابان) من دولة الإسلام فى المدينة ، ثم وصلا إلى دمشق ، بغداد ، وأسبانيا ، وصقلية .. حتى انتشر فى معظم أقطار العالم .. وكانت هذه الحركة الفكرية (التوحيدية) تغاى من عقبات حيناً بعد حين بسبب ما استقرت فى الأذهان والعقول من شرك قديم ، ولكن مع هذه العقبات كانت هذه الحركة الفكرية تمضى قدماً نحو الأمام ، ولم تصادف أية محاولة من القوى المعارضة النجاح فى استعادة عهد تقديس الطبيعة ، ولم يتمكن أى حاكم من أن ينال مكانة الملك المعصوم المقدس ، كما نال النمرود فى العراق وفرعون فى مصر فى قديم الزمان .

من العالم الإسلامي إلى العالم الغربي

لقد انطلق هذا الانقلاب ، وبقي نحو ألف سنة في العالم الإسلامي .. ولكن مع بدايات القرن السادس عشر الميلادي كانت قد تصدعت وحدة المسلمين حتى انقرضت الدولة العباسية التي كانت عاصمتها بغداد ، ثم انقرض عهد المسلمين لنفس السبب في أسبانيا ، فلم تبق في العالم الإسلامي هيئة أو مؤسسة تقوم برعاية العلماء الذين كانوا يكرسون حياتهم للبحث والتنقيب ، وأمام هذا الوضع اضطر هؤلاء العلماء والمفكرون إلى التزوج تدريجياً إلى إيطاليا وفرنسا ، فلقى هؤلاء العلماء حفاوة بالغة في أوروبا لأسباب معلومة .. وبالتالي بدأت آثار انقلاب (التوحيد) الذي كان قد بدأ في العالم الإسلامي تنتشر في أوروبا ، غير أن هذا العمل تعرض لتغيير عندما وصل إلى أوروبا .

كان هذا الانقلاب قد طهر إلى الوجود في العالم الإسلامي بتأثير (الإسلام) ولكن أوروبا لم تكن مساهمة فقامت بتطوير هذا العمل من الناحية العلمية فقط ومع أن انتقال العلوم الإسلامية وتعليم اللغة العربية أثر إلى حد كبير على العفائند المسيحية حتى إن أفكار مارتن لوتر (١٤٨٣ - ١٥٤٦ م) كانت وليدة أثر الإسلام على أوروبا مباشرة ، ولكن هذه النهضة العلمية والفكرية ظهرت في أوروبا كحركة (علمانية) وليست ذات روح ديني .. إن الثورتين العلمية و (الديمقراطية) اللتين ظهرتتا في أوروبا قد نبعتا من نبع انقلاب التوحيد الإسلامي . ولكن الغرب الأوربي أعطى هاتين الثورتين الصبغة العلمانية .. فمما لا شك فيه أن الثورة الأوربية الجديدة إنما هي (صورة دنيوية) (للثورة الإسلامية) كما نجد (القنبلة الذرية) صورة عسكرية لنظرية النسبية (البرت اينشتاين) والملكية (الجماعية الاشتراكية) صورة اقتصادية للنظرية الماركسية .

دور الاسلام في ظهور الحضارة الافريقية

ذكرنا أن الثورة العلمية أو الانقلاب الغربي الجديد كان وليد الانقلاب الإسلامي ، وكانت نتائج هذا الانقلاب هامة جداً من الناحية الإسلامية .

كان هذا الانقلاب استجابة في هذه الدنيا للدعاء الذي ورد في القرآن : « ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا » فإن التغيرات التي حدثت كانت في صالح المسلمين في الحياة الاجتماعية على النحو التالي :
أولاً : لقد كان الملوك في قديم الزمان يحكمون الناس بحجة أنهم من سلالة الآلهة ، ولذلك ظلت دعوة (التوحيد) في قديم الزمان معارضة للحكم السياسي فكانت تتعرض للمقاومة والحظر ، لأن المتألهين المستبدين من الحكام كانوا يعتقدون أن مقاومة الشرك تحمل ضمناً معارضة لحق حكمهم ، فالثورة الفرنسية التي ظهرت إلى الوجود في أوروبا إنما قامت نتيجة للثورة الفكرية الإسلامية التي قضت على عقيدة تأليه الملوك إلى أبد الآبدين ، فظهرت لأول مرة في التاريخ إمكانية نشر التوحيد والدعوة إليه بدون خشية الاضطهاد .

ثانياً : والشئ نفسه - كما ذكرنا - في أمر عبادة مظاهر الطبيعة وتقديسها ، فإنه لما جاء الإسلام أحدث انقلاباً عظيماً في الفكر فصار الناس يعتبرون هذه المظاهر الكونية مظاهر مادية عامة ، وأصبحت هذه المظاهر موضوعاً للبحث والتنقيب والتحليل لا موضوعاً للعبادة والتقديس إن هذه الثورة الفكرية كانت فاتحة عصر (العلم والتكنولوجيا) ، وبالتالي تمكن (الإنسان) من اختراع وسائل المواصلات والاتصال الحديثة ، مثل المطابع والراديو والتلفزيون حتى ظهرت لأول مرة في التاريخ إمكانية نشر الدين على صعيد دولي .

ثالثاً : ونتيجة هذا الانقلاب الجديد أصبحت حقائق الكون مكشوفة وصارت هذه الحقائق ذات دلالة علمية على صحة مبدأ التوحيد والمعتقدات المتعلقة به .. فلاؤل مرة أصبح من الممكن إثبات الحقائق الدينية بأدلة منبثقة من مشاهدة عالم الطبيعة .

رابعاً : إن هذا الانقلاب أبدع منهجاً علمياً نقدياً موضوعياً لا تشوبه شائبة الأوهام والخرافات ، ونتيجة لهذا الانقلاب الفكرى تم الاعتراف بأن جميع الأديان غير تاريخية وغير موثوق بها إلا بالإسلام وانظر فى ذلك كتاب « The Bible and He Quren and Science » (الكتب المقدسة فى ضوء العلم الحديث - لموريس بوكاى Maurice Bucaille) .

سيطرة أوروبا على العالم الإسلامى

لقد انتصر العالم الإسلامى فى الحروب الصليبية على أوروبا المسيحية ، ولكن بعد هذا الانتصار بدأ الوضع بنقلب تدريجياً ، إذ أدركت أوروبا النصرانية أن سبب الهزيمة هو تخلفها عن العالم الإسلامى فى الميدان العلمى والفكرى ، فعكفت على تعلم العلوم الإسلامية واللغة العربية . وبعد قرون كثيرة عندما نزع العلماء المسلمون من عواصم الدولة الإسلامية - كما أسلفنا - إلى أوروبا سار الركب العلمى فى أوروبا سيراً حثيثاً حتى سبقت أوروبا المسلمين فى جميع مناحى العلم والعمل ونالت قصب السبق فبدأت تتوغل فى البلدان الإسلامية حتى تم لها الاستيلاء على كافة البلدان الإسلامية تقريباً .

إن هذه هى الكارثة السياسية التى أدت إلى ظهور ما يعرف بالنضال السياسى ، حيث رأى المسلمون أن الأمم التى هزمت فى الحروب الصليبية قد دخلت ديارهم وانتصرت بعد فشلها الذريع . وبالتالي بدأ عهد (النضال

السياسى) فى جميع البلدان الإسلامية وأصبحت فكر النضال السياسى شغلا شاغلا للمسلمين ، وأصبح البعض منهم يعتقدون أن هذا النضال السياسى هو (حقيقة الإسلام) وهو الطريق لكى يعلنوا هذا (الجهاد المقدس) ضد الحكام الوطنيين عندما يفرغون من الجهاد السياسى ضد الحكام الأجانب .. فى هذه البيئة السياسية لم يكن يسمح لأحد أن يبحث عن إمكانيات جديدة فى العالم الجديد - خارج نطاق النضال السياسى - تضمن أو تتكفل بنجاح الدعوة الإسلامية .. كانت هذه الإمكانيات تنتظر شخصاً يقوم بعبء الدعوة ، ويستغل (الإمكانيات الجديدة) ويستحث الأمداد الإلهية ، ولكن (النفسية السياسية) شغلنا عن السير على جادة الإسلام والدعوة الإسلامية.

حقيقة الانقلاب السياسى

• ما هو موقف الإسلام من الانقلاب السياسى .. ؟ ..

إن الانقلاب السياسى فى نظر الإسلام هو سيطرة أهل الحق على أهل الباطل ، ولقد صرح القرآن بأن هذه السيطرة تتحقق بنصرة الله وتوفيقه « وما النصر إلا من عند الله » .. والشرط الأساسى لاستحقاق النصرة الإلهية هو القيام بواجب الدعوة ، فعندما يقوم أهل الحق بمهمة الدعوة مستوفين جميع الشروط اللازمة ويصلون إلى درجة التأهيل الكامل ، فإنهم يستحقون لقيامهم بحق الدعوة جائزة من الله ، كما يستحق أهل الباطل - برفضهم هذه الدعوة - عقاباً من الله . فينزل الله نصره ، وتنقش سحب الظلم عن المسلمين ، وتجرى الأمور فى المجرى الذى يقلب كفة الميزان على الأرض ، وحينئذ فقط ينتصر المسلمون بتأييد الله .. فهذه هى سنته فى التغيير والنصر : « ولن تجد لسنة الله تبديلاً » (الأنعام ١٣٦)

رد الفعل السياسى فى العالم الإسلامى

صادفت بداية القرن الرابع عشر الهجرى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى ، وعند هذه النقطة نقول : لقد كان القرن الرابع عشر الهجرى ذا أهمية خاصة فى التاريخ الإسلامى ، إذ أن هذا القرن بدأ عندما اكتمل الأثر الناجم عن انقلاب (التوحيد) الإسلامى ، وقد تهيأت جميع الوسائل اللازمة لنشر الهداية التى أنزلها الله للعباد بواسطة محمد خاتم النبیین صلى الله عليه وسلم - ولكن - يا للأسف - هناك مأساة سوف يسجلها التاريخ وهى أن المسلمين - بأنفسهم - قد أغلقوا ذلك الباب الذى فتحه الله لهم نتيجة تطور دام ألف سنة .

لقد استخدمت أوروبا (القوة) التى وفرها الانقلاب الجديد لنشر مطامعها القومية ، وقد حذا الآخرون حذوها ، فلم تلبث الأمم الأوربية أن سيطرت على ما تعتبره من الطاقات الجديدة حتى رأينا هناك شيئاً يدعى (الاستعمار الغربى) يمثل ظاهرة عالمية ، فقد خرجت أوروبا وانتشرت فى العالم وغرست البيارق والأعلام الغربية فى البر والبحر ، ونشرت حضارتها فى البلدان الأخرى . أما الذين وضعوا العراقيل فى وجه نفوذ أوروبا وسلطانها فقد تعرضوا لكثير من أنواع الظلم والقهر .. وكان أن أصبح المسلمون مباشرة فريسة اعتداءات الدول الغربية ، إذ أن معظم العالم الذى زحفت عليه أوروبا الاستعمارية كان تحت سيطرة المسلمين .. ونتيجة لهذا الوضع ، نظر المسلمون إلى هذا الانقلاب الفكرى الغربى على أنه قوة معادية لهم تريد إعمال السيوف فى رقابهم وإنزالهم عن عرش العظمة والمجد . وبالتالي فلم يروا الجانب المفيد الصالح للانقلاب الغربى (فى المجال العلمى) بل جعلوه بالجملة خصماً اقتصادياً وسياسياً .

كان القرن الرابع عشر الهجرى أول قرن في تاريخ الإسلام كله يوفر إمكانية نشر دعوة التوحيد ببسر وسهولة ، وبطرق ملائمة ، بينما كان دعاة الإسلام في الزمان الماضى يقومون بمهمة هذه الدعوة في وضع غير ملائم يسرده جو التوتر والمعارضة والاضطهاد .. وكذلك ولأول مرة فقد برهن الدين الإسلامى على أنه دين موثوق به بالمقاييس التى وضعها الإنسان نفسه فى هذا العصر الحديث ، فكان من مقتضيات العصر أن يقدم ويعرض بكل الأدلة العلمية حتى لا ينكره إلا جاحد متعنت .. وكذلك لأول مرة فى هذا القرن برزت إلى حيز الوجود وسائل النقل والمواصلات المتطورة التى كان يمكن استعمالها لنشر رسالة الإسلام على نطاق دولى وفى أقصر وقت ممكن ، ولكن لأن الأمم التى جلبت لنا هذه الطاقات الجديدة أصبحت خصماً سياسياً بطريق (الصدقة) فبالتالى أصبح العالم الإسلامى كله ذا نفسية انزامية ، وعمت فيه موجة الاستنكار والاستهجان للدول الغربية ، وغاب عن نظر المسلمين ضرورة امتلاك ما ينفعهم من هذا الانقلاب الغربى الجديد ولكن الواقع أن الله قد فتح للمسلمين إمكانات جديدة من خلال هذا الانقلاب ، وكان يمكن استعمالها لمقاصد الدعوة الإسلامية ، وللقيام بغزو فكرى للدول الأوروبية . ولو تَفَقَّطَ المسلمون إلى هذه الحقيقة ، واتخذوا خطوة حكيمة لظهر من جديد ذلك الحادث الذى ظهر فى القرن الثامن الهجرى فى شكل اعتناق (التتار) الفاتحين للإسلام .

ومما زاد الطين بلة أننا لم نقم بإنشاء رابطة إسلامية صحيحة مع الأمم الأخرى . إن جميع الأمم والأقوام إنما هى حقل خصب للدعوة الإسلامية ولكن النفسية السلبية الناتجة عن الاستنكار والامتناع أدت إلى إهمال هذه الحقيقة . فإن الإسلام الذى عرفته كثير من الحركات الإسلامية المعاصرة على اختلاف أساليبها ، كان إسلاماً قومياً ، وليس ديناً نزل لهداية العباد

لإخراجهم من الجحيم وإدخالهم الجنة . إن العجز الذى سيطر على الحركات الإسلامية وجعلها لا تميز بين (الغرب الاستعماري والغرب ذي الطاقة الجديدة) هذا العجز سبب الحيلولة دون تعبئة الإمكانيات الجديدة لخدمة الدعوة ونشرها في العالم ، بل على العكس راح المسلمون - في بعض الأحيان - يضحون بأنفسهم ، وبفنائهم الممتدة إلى ألف سنة دون وعى أو عقل . وقد قدر لهذه التضحيات أن لا تعود بفائدة في عالم الأسباب ، فإن هذه السياسة غير الواعية للحقيقة استمرت إلى فترة زمنية طويلة وألحقت هذه السياسة ضرراً بنفسية المسلمين فصار عالم الإسلام يحملته مصاباً بجنون العظمة المفروضة « Paranoia » وكان من جزاء هذا أن لا يسمع لأى رأى مخالف ولا لأى رأى جديد رشيد .

مسئولية ولا فخر

قام رئيس باكستان الجنرال (محمد ضياء الحق) في مستهل أكتوبر سنة ١٩٨٠ م بإلقاء خطبة في الجمعية العامة للأمم المتحدة ، استغرقت ساعة ونصف الساعة ، وكانت خير معبر عن مشاعر مليار مسلم في العالم - على حد تعبيره - وهذه فقرة من كلمته المكتوبة ، جاء فيها :

« بمناسبة بداية القرن الخامس عشر الهجرى تعثر الملل الإسلامية من جديد على فخرها بدينها وبعظيم حضارتها ونظمها الاقتصادية والاجتماعية المنفردة - وهى واثقة بأن بداية هذا القرن ستسجل فاتحة عهد جديد .. وأن مبادئها السامية للأمن والسلام والعدالة هى خير للإنسانية وهى سبيل التفاهم بين الشعوب ، ولسوف تمكنها من أداء دور عظيم لإسعاد الإنسانية »

كان الجنرال (محمد ضياء الحق) يشيد بالمسلمين ويثني عليهم ، ولكن في هذه الإشادة يكمن سر مأساة المسلمين .. لقد ذهب الفخر

بجهودهم في هذا العصر أدراج الرياح .. إن العلم الإسلامى اليوم ملئ
بالنشاطات والحركات باسم الإسلام ولكن هذه الضجة كلها تبنى على نفسية
الغرور والاستعلاء لا على نفسية الشعور بالمسئولية .

مع أن القرآن يحذرننا من أن تكون الأعمال الدنيوية دافعها الفخر
والاعتزاز « ولا تفروحو بما آتاكم » ويطالبنا بأن تكون جميع الأعمال
دافعها الشعور بالعبودية « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .

إن الفخر يثير الأنانية وحب السمعة ، وإن السمعة تثير روح التواضع
والشعور بالمسئولية ، إن الإسلام عقيدة قامت بتحذير الناس من النار
وإعدادهم لجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .. لكن كثيراً
من حركات العصر الحديث المنسوبة إلى الإسلام قامت لإحراز المكانة
السامية في الدنيا . وقد أبرزها إلى حيز الوجود (الشعور القومى) المتلفع
برداء الإسلام .. فصار الإسلام للمسلمين مجرد باعث للاعتزاز والافتخار
وليس صراطاً مستقيماً للآخرة ، وناهيك بهذه الحقيقة دليلاً على أن بعض
الحركات الإسلامية مجرد حركات قومية وإيست حركات إسلامية خالصة .
إن الدين الذى يثير مثل هذه الضجة في المسلمين اليوم إنما هو دين (قومى)
أو نخلة مذهبية ، وليس ديناً إلهياً ، وإن مثل هذا الدين القومى يخلق نفسية
الفخر والغرور ، بينما الدين الإلهى يخلق النفسية المعبأة بالشعور بالمسئولية
نحو البشرية كلها .

إن من شأن الإسلام الحقيقى أن ينشئ التواضع في الإنسان ، فالكبر
أساس الشر ، والتواضع أساس الخير .. فإذا اتسم الإنسان بالتواضع واللين
استيقظت فيه خصائص خوف الله وطلب الفوز في الآخرة ، وحب التكاتف
والأمر بالمعروف ، والعفو والتسامح ، والاهتمام بالأعمال البناءة ، والشعور

بالمسؤولية ، وعندما يتكون عدد كبير من هؤلاء الأبرار الأخيار في مجتمع ما فإنه يحصل على أعلى مكانة ، وعلى العكس من ذلك الإسلام الملى والقومي فإنه يخلق نفسية الفخر والمباهاة ، ويتمم أفراد هذه النفسية بسمات الأنانية ونسيان الآخرة ، ومحاسبة الآخرين بدلا من محاسبة النفس ، وإن هذه السمات تفضى إلى التزاغ والصراع ، ولا يرغب أصحابها في الأعمال الطيبة البناءة ، بل يحبون الرياء وطلب السمعة ، ويحبون الإمامة والقيادة بدلا من حب الانصياع للحق ، وهم يتحدثون عن أعمالهم التافهة بكلمات مججلة لإشباع مركب النقص القائم على شعورهم بالاستعلاء .

وفي مثل هذا المجتمع يصبح الإسلام قولا يقولونه وليس عملا يؤدونه . وهذا المجتمع المنافق يستحق غضب الله ولا يستحق نصرته وتأييده .. إننا نرى أن الحركة الصهيونية لليهود تستهدف استعادة المجد الإسرائيلي القديم وفي الهند تتوخى منظمة آر إس إس « R. S. S. » الهندوسية استرجاع الماضي الرائع .. وهذا قد دفع بعض المسلمين إلى القول بأن للمسلمين أيضاً تاريخاً مجيداً يستحق الفخر والذكر وبالتالي استنهضت الحركات الإسلامية الحمم بغية إشادة (قصر المجد) على أنقاض المجد الغابر ، ونحن نعرف أن الحركات اليهودية والهندوسية ليست حركات دينية بالرغم من استعمالها اصطلاحات دينية ، فكذلك حال الحركات الإسلامية الناشئة عن مثل هذا الشعور والتي اقتفت أثر اليهودية والهندوسية . وهذه الحركات لن تكون حركات دينية لمجرد توضيح أهدافها بمصطلحات وكلمات دينية . وفي الإسلام تقوم الأعمال على أساس النيات فإن الحركة التي تخرجها إلى حيز الوجود - نفسية أو قومية أو وطنية - سوف تكون عند الله أيضاً حركة قومية أو وطنية ولن تكون حركة دينية بحجة لمجرد استشهاد القائمين عليها

بآيات من القرآن و ببعض أحاديث الرسول ، ولن يتحقق لمثل هذه الحركات وعد الله الذى يختص بالحركات الإسلامية الخالصة .

إن الشجرة الحقيقية تنمو ببدورها ولا تنمو ببدور غيرها ، فهكذا تصل إلى النتائج الموعودة من الله ، تلك الحركة التى نهضت وقامت على أسس إسلامية وليست تلك التى نشأت ونمت نتيجة العوامل أو الخوافز القومية ولو عبرت عن نفسها فى مصطلحات إسلامية وكلمات دينية .

إن الحركات الإسلامية تمثل المعرفة الإلهية التى تهدف إلى تمثل الآخرة فى الحياة الدنيا ، وإقامة الأخلاق الإنسانية والكونية فى المجتمع البشرى .
و خلاصة القول .. إن الحركة الإسلامية حركة تقوم على حقيقة أبدية وليست حركة ناجمة عن رد فعل مؤقت متأثر بالأحداث القومية .

والمؤمن دوحة باسقة تنمو فى أرض الله وجماعة المؤمنين هم روضة الله الغناء ، والذين يصفون نورانهم (القومية) وحركاتهم الطائشة بالدعوة الإسلامية إنما يريدون أن يقولوا إن أشجارهم الذابلة اليابسة هى روضة الله .
إنهم يخترعون أساليب الاستغلال باسم الله .. بينما هم لا يستحقون أدنى تقدير .. لا من الله .. ولا من الناس ..

الإسلام يغلب

إن أهم مسألة تستقطب عقول المسلمين اليوم في العالم كله هي مسألة البعث الإسلامي من جديد ، ولكن لو رأينا ما اتخذوا من مناهج لاستعادة المجد الغابر لعرفنا أن لدى المسلمين تطلعا غامضا منفرسا في قلوبهم ، ولكن ليست لديهم الطرق المرسومة المدروسة لاسترجاع الماضي وتحويله إلى حقيقة واقعة في الحاضر .. ويفتقرون إلى التوعية الصحيحة الواضحة .

وللمسلمين فيما يفكرون مذاهب ومدارس ، فمن حالم يحلم بأن تعبير المساجد يتحقق بطريقة نشر بعض الأساطير والأحاديث الموضوعة في فضائل العبادات ، ويظن هؤلاء أن هذا يكفي المسلمين في الدنيا مغبة العمل والجهاد ، وأن الدنيا بهذا الأسلوب ستثول تلقائيا إلى كنف المسلمين . ومثل هؤلاء .. أولئك الذين يعتقدون أملهم على الرقي والتعاويد لإزاحة جبال هملايا عن مكانها ، ولرب خطيب ساحر يرى أن حل مشكلات المسلمين مضمون في الكلمات المزخرفة والخطب الرنانة ، ولا يدرك أن هذا الكون الذي خلقه الله خاضع للتواميس المحكمة ، ولا تعود هذه الجمعية والفيهة وطين الكلمات بفائدة تذكر ، ولا تعين في إثبات حق .

ولا يقل عن سذاجة هؤلاء أولئك المتسكعون الذين يزعمون أن استرجاع نقاء الإسلام وصولته يمكن أن يتحقق بتجريد زعيم من السلطة أو الإطاحة بعرش من العروش ، أو جر حاكم إلى المشتقة .. وهؤلاء لا يستطيعون استيعاب أن المسألة ليست مسألة إخضاع شخص أو أشخاص يناهضون الإسلام والقضاء عليهم بطريق أو آخر ، بل هي مسألة إخضاع القوى العالمية التي قهرت المسلمين وشوّهت مفاهيم الإسلام .. فالأمر صراع حضارى وليس قضية بعض الأشخاص الزائلين .

قانون تغيير الحكم

يبين لنا القرآن أن الله يؤثي الملك من يشاء ، وأنه سبحانه مالك الملك وهذا يشير إلى أن سيطرة قوم على حكومة ليس أمراً بسيطاً عادياً . بل يكون بقضاء الله وقدره مباشرة ، وانتصار قوم يكون دائماً على حساب قوم آخرين ، ولأجل إبراز هذا الواقع المهم يجب حدوث تغيرات واسعة جنسية تجعل الظروف موالية لصالح جماعة وغير موالية للآخرين .

وتطراً هذه التغيرات غير العادية في الحياة الاجتماعية لأسباب فوق العادة ، ويحدث الانقلاب أياً كان نوعه لأسباب كونية لا تقع عادة تحت سيطرة شخص أو جماعة ، وعلى سبيل المثال فإن الثورة الاشتراكية في روسيا قد تولدت عن ظروف وأوضاع ناجمة عن الحرب العالمية الأولى . وتيار الحرية الذي جرى في منتصف هذا القرن وحرر معظم الدول الآسيوية والإفريقية من ربة الاستعمار الغربي كان نابعاً من الأحوال الطارئة التي كانت أكبر نتائج الحرب العالمية الثانية ، ولم تكن في قدرة الحركة الاشتراكية أو الحركة الوطنية أن تذكي الحرب على نطاق عالمي أو لم تظهر الحربان العالميتان ..

وعلى هذا المقياس يمكن القول بأن مرد الفتوح الإسلامية السريعة في القرن الأول الإسلامي يرجع إلى سريان الضعف والوهن في السلطتين ، الإيرانية والرومية بسبب حروب طويلة ناشبة بينهما ، والمعلوم أن نشوب الحروب التي دكت القوميتين العظيمتين كان في يد الله وليس في قدرة الإنسان ..

ونحن نعلم من القرآن أن التغيرات السياسية التي تخضع لها الشعوب تطراً بحكم قانون الدفع « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت

الأرض » وبالتالي فإن هذه التغيرات لابد منها للإطاحة بنظام مستبد ، واستبدال نظام آخر به ، يكون خيراً منه .

إن التغيرات العامة تأتي من هذا القبيل وهى تغيرات سلبية النوع أما التغير الإسلامى فيخرج إلى الوجود لأغراض إيجابية وهذا التغير نعمة ينعم الله بها على عباده الصالحين ، وهو جزاء لمن أثبتوا جدارتهم واستوفوا شرائط الصلاح والتقوى : قال تعالى :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ويمكّن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً » (النور : ٥٥) .

والحق أن البعث الإسلامى الجديد ليس أمراً هيناً يحدث بحركات سياسية طائشة عشوائية ، وإنما هو قضية مقاومة لاستبداد الكفر وسيطرة الشرك . وهى مسألة تحويل الحضارة الغالبة عن مكانها القيادى . وإحلال حضارتنا الإسلامية المغلوبة فى مكان القيادة .. إنها مسألة استرجاع عهد تاريخى والقضاء على عهد تاريخى آخر ، وخلاصة القول أن المسألة أعقد وأكبر من تصورات المتهورين ، ولا يمكن تسويتها بدون قضاء الله وطاقاته غير المرئية .

إن الأمر يحتاج إلى (طوفان نوح) الذى يكتسح ذرية الشيطان ، كما أنه يحتاج إلى آية موسوية تودى بحياة فرعون وملكه وتغرقهم فى اليم . كما يحتاج ذلك إلى ملائكة الله ليتزلوا من السماء ويجمعوا طواغيت الكفر فى ميدان « بدر » ويخضعوهم للمسلمين ، وهذا معناه أنه لابد من عون الله وأنه لا يمكن للمسلمين أن يحققوا النصر - فى هذا العصر ومع هذا الوضع العالمى المعروف - بجهودهم فقط -- فمعونة الله - هى الكفيلة بتحقيق النصر .

حقيقة أنه لا مزية في أن المسلمين سيسيروا بأقدامهم إلى الأمام ، ولكن الله سيهيئ كل الوسائل التي يصعدون بها إلى مكانة مرموقة في وقت أقصر ، وليس هذا التغير العظيم في قدرة الإنسان وحده .. بل إن الأحوال في يد الله يقلبها كيف يشاء .

لقد أصبح المسلمون مغلوبين على أمرهم في مشارق الأرض ومغاربها ولا يمكن أن يكون الحل للتخلص من هذه الحالة في مقدور حركات عادية وإنما يكون الحل في ظهور أحوال غير عادية ، وبالتالي فلا يمكن تحقيق أحلامنا وآمالنا إلا إذا جعلت الإرادة الإلهية جهودنا مواكبة لحركة التاريخ وأحدث رب المشرقين والمغربين شقوقاً ومنافذ في الصخور السياسية والمدنية التي تقف في وجهنا .

إن خالق الأرض والسماوات لن يتركنا وحدنا ، ولسوف يعيننا إذا استحققنا نصره . بالرياح والعواصف التي تهب لتقتلع خيام الأعداء ، وتمهد الطريق للملة الإسلامية ولسوف ينزل الله المطر من السماء ليغمر الأرض بالخصوبة التي تيسر الوسائل الصحيحة للحياة في جانب ، بينما تحدث زلزلة تندثر بها مرتفعات وترتفع منحدرات في جانب آخر .. ولسوف ينزل الله الأمن على جيشنا المسلم ، وينزل رعباً على الجيش غير المسلم عندما تدور رحى الحرب .

وبهذه الأمداد الإلهية بلغ الركب الإسلامي غاياته المنشودة في عهده الأول ، لن يبلغها في الوقت الحاضر إلا بعودة هذه المعونة الإلهية .

الدعوة إلى الله ضمان للنصر

ولاستحقاق هذا النصر من السماء يجب أن يتميز المسلمون بميزة واضحة هي القيام بالدعوة الإسلامية والإصلاح الذاتي وتركية النفس . وهذه هي

المسئولية الكبرى الواقعة على أهل الإيمان .. إنها نفسها هي الشهادة على الناس التي يترجمها حديث الرسول (أنتم شهداء الله في الأرض) ، فإن مؤهلات النصر والتمكين مرهونة بشرط القيام بمسئولية الدعوة .

إن المسلمين يعيشون اليوم وفي كل العصور مع شعوب أخرى ، حيث تنهب جماعة جماعة أخرى وحيث تقوم طبقة بنشاط مكثف لتستعلى على طائفة أخرى - وإن هذا التصارع يخلق مشكلات للمسلمين ، وفي كثير من الأحيان يتعرضون لاعتداءات جماعية أخرى غير مسلمة ، وينتج عن ذلك أن ثائرة المسلمين تثور ضد شعوب أخرى عندما يجدون أنفسهم في خطر ويريدون الجهاد ضدهم ، ولكن إذا تأملنا في هذه المسألة من المنظور القرآني فسوف نجد حلاً مختلفاً عن الحل الذي يطرحه دعاة الثورة . فإن القرآن يعلمنا أن الأزمة مهما كانت جسيمة أو تعود بخسارة كبيرة في الأموال والأرواح فإن حلها هو بالدعوة إلى الله ، وبالتالي ، فإن جهود المسلمين يجب أن تكون مركزة على الدعوة إلى الله ، وينبغي أن لا تكون الدنيا هي المحور الأساسي لاهتمام المسلمين وغايتهم الكبرى ، وهذا هو الدرس العظيم الذي وجه إلى الأمة الإسلامية بواسطة الرسول في القرآن : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس » (المائدة : ٦٧) ، وثبتت لنا هذه الآية بكل وضوح أن سر العصمة من الناس كامن في الدعوة إلى الله . فكلما تعرض أهل الإيمان لخطر الأمم الأخرى واستشعروا خطر الاستعباد فعليهم أن يتوجهوا مخلصين إلى الدعوة إلى الله .. فهذا هو العمل الذي ربطه الله بإرادته ووعد بأن يهيء من أجله أسباباً غير عادية تشكل سلباً ينهي بالمسلمين إلى النجاة والفلاح .

إن الميزة التي يتفرد بها العمل في حقل الدعوة هي أن الطبيعة تتحول إلى حليفة له بصفة دائمة ، فمهما كان الناس مختلفين على مستوى العصبية والعداء فإنه - على مستوى الطبيعة - يكون نداء الحق نداء (ضمير) لجميع الناس ، إن الدعوة إلى الحق دعوة تختفى معناها في كل قلب ، وتضمه كل فطرة ، وليس دين الله وطبيعة الإنسان إلا تعبيرين لحقيقة واحدة ، فقد جبل كل إنسان على تصور خالقه في سويداء قلبه ، وإن باطن كل إنسان مفظور على أن يلقي بنفسه أمام خالقه ومالكه .

وبالإضافة إلى هذه المساعدة التي تقدمها الفطرة ويقدمها النداء المختفي للضمير ، فإن ثمة مساعدة تاريخية أخرى وتتلخص هذه المساعدة في أن جميع الأديان قد فقدت نقاءها الأصلي نتيجة تحريفات متبعتها ، وتبدلت إلى درجة فقدت معها تلك المطابقة التي وضعها الله بين الدين الحقيقي والطبيعة الإنسانية السليمة ، والنتيجة الوحيدة هي أن جميع الذين يؤمنون الآن بدين غير الإسلام ، إنما يؤمنون إيماناً تقليدياً ، وهم يقفون على أرض العصبية لا على أرض التصديق الطبيعي ، لأن التصديق الطبيعي لا يوجد عندهم على الإطلاق .

إننا إذا نجحنا في إزاحة ستار العصبية فستقف الأديان الأخرى في العراء ولن يكون أمام الناس سبيل إلا أن يستظلوا بشجرة الإسلام الوارفة الظلال .

أمثلة تسخير الدعوة

يكن سر حياتنا في الدعوة إلى الله ، وليس هذا أمراً نشازاً ، بل هو أمر يؤكد التاريخ الإسلامي تأكيداً واضحاً .

لقد بدأ النبي - صلى الله عليه وسلم - يقوم بمسئولية الدعوة في مكة ، ولكن أرض مكة بدت أرضاً جديباء لا ينبت فيها نبات ولا تلين فيها

قلوب للإسلام ، وهكذا انقضت ثلاثة عشرة سنة دون أثر يتناسب معها حتى لقد كان يبدو أن تاريخ الإسلام سينتهي بمكة كما بدأ بها ، ولكن الأسباب أصبحت مواتية بصورة مدهشة في المدينة ، فأزمع النبي - صلى الله عليه وسلم - وصحبه أن يهاجروا إليها ويقيموا هناك مركزاً للإسلام ..

والسؤال هنا : لماذا ظهر هذا المكان الجديد للدعوة ؟ ..

والجواب واحد : لقد ظهر هذا المكان الجديد بطريق الدعوة والتبليغ وذلك بفضل جهود بعض أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - وعلى رأسهم مصعب بن عمير ، فبفضل مصعب انتشر الإسلام في المدينة حتى جاس خلال الديار : « حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون (سيرة ابن هشام ، الجزء الثاني : ٤٧١) .

فهكذا انفتحت أبواب جديدة لنشر الإسلام في ظروف قائمة باعثة على اليأس والقنوط .

ولئن كانت الهجرة قد وفرت للمسلمين منظمة خاصة لهم ، فإن أعداء الإسلام قد أججوا نيران الحرب من جديد ، مما أحدث للمسلمين وضعاً خطراً جداً ، وأصبح الإسلام محفوفاً بالخطر حتى كاد الأعداء يطفئون نور الله بأفواههم ، ولكن القيام بواجب الدعوة قد فتح أبواباً جديدة للإسلام مرة أخرى ، وهذه الأبواب تتمثل في صلح الحديبية الذي كان له فضل لإنهاء التنازع والتصارع والمصادمة ، فعادت الحالة هادئة طبيعية مكنت المسلمين من استئناف الدعوة مما أدى إلى مضاعفة عدد المسلمين إلى أربعة أضعاف في فترة تقل عن سنتين ، وألقى الوضع الجديد للدولة الرعب في قلوب زعماء قريش ، فألقوا الأسلحة عند فتح مكة دون قتال .

ولقد ظهرت بعد فتح مكة مسألة أخرى مثيلة للمسألة السابقة ، وهى مسألة ثقيف فقد كانت هذه القبيلة متمردة جداً ، وكانت تعيش فى مدينة الطائف التى كانت محاطة بالجبال ، ولذلك كان من الصعب شن الهجوم على هذه المدينة . ولم يكن الطريق الذى أخضع قبيلة ثقيف فى هذه الآونة إلا طريق الدعوة : فدخلت قبيلة هوازن - التى بلغ عدد أهلها ستة آلاف - فى الإسلام وكانت هذه القبيلة حليفة لقبيلة ثقيف ، وكان اعتناق هذه القبيلة الإسلام بطريق تأليف القلوب ، ولما اعتنق جميع أفراد قبيلة هوازن الإسلام أحست ثقيف بأن أجنحتها قد تكسرت ، ولم يبق أمام أهلها مجال إلا أن يذهبوا إلى المدينة ويعتنقوا الإسلام ، ويلتفتوا حول رأيه .. وهكذا كان باب الطائف مغلقاً أمام الحملة العسكرية ولكنه أصبح مفتوحاً أمام زحف الدعوة الإسلامية .

وعندما يصل التاريخ الإسلامى إلى القرن الثامن الهجرى ويجتاز مراحل مختلفة خلال هذه الفترة ويدخل (التتر) العالم الإسلامى ، نجد التتار يقيمون الدنيا ويقعدونها ويهلكون الحرث والنسل ويعملون السيوف والرماح فى أعناق عشرات الآلاف من المسلمين .

لقد خرج جنكيز خان من آسيا العظمى عام ١٢١٦ م على رأس جيش يربو على مائتى ألف جندى يشبهون الوحوش والسباع .. وقد عمل هذا الجيش على النهب والسلب والقتل ، وقد دمر جنوده العراق وإيران وتركستان ، حتى ساد العالم الإسلامى كله الفزع والهلع والخوف والروع ، وغشيه موج من الوحشة .

ومرة ثانية فى عام (١٢٥٣ م) يزحف جيش ترى آخر بقيادة حفيده هولاكو ، ذلك الذى زحف إلى العالم الإسلامى زحفاً يشبه السيل

العرم ، والذي ذهبت ضحية زحفه دول إسلامية بأكملها ، ومشت جيوش هذا الرجل فوق عشرات الألوف من المسلمين في وقت كانت فيه هذه الدول الصغيرة تحاول رفع مجد الإسلام وعظمته في حدود طاقتها .

ويضيف لنا المؤرخ المسلم (ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ) هذا الواقع الأليم ، والذي شهده بعينه ، بهذه الكلمات التي يقول فيها :
« .. لو قال لك أحد إنه لم يحدث مثل ما حدث في هذا اليوم منذ ولد آدم عليه السلام إلى يومنا فلن يكون مخطئاً » ويروى مؤرخ غربي هذا الحادث بهذه الكلمات : « لقد سقطت السماء على الأرض ، وأبادت ما كان عليها » .. Jenghiz Khan, by Harold Lamb P. 266 . »

في هذه اللحظة الحاسمة كانت قوة الدعوة الإسلامية هي التي أصبحت سداً ضد سيل التار ، فبدأت قلوب التتر تنفتح على الإسلام — بعد هزيمة المسلمين العسكرية — بفضل هذه الدعوة المباركة ، حتى إن الإسلام ملك قلوبهم فاعتنق أكثرهم الإسلام ، وهكذا صاروا أمناء الإسلام وحماة المسلمين بعد أن كانوا أعدى أعدائهم ، فكيف تحقق هذا النصر يا ترى ؟ وهل كان هناك رجال يعملون على نمط النظم التبشيرية السرية ، وساموا في نشر الدعوة الإسلامية ؟ أم كان ذلك فقط رحمة من الله تبارك وتعالى توجهت إلى قلوب التتر فوضعت في قلوبهم حنيناً للإسلام والمسلمين ؟ ..

إنها الدعوة والرحمة في سياق واحد ، وإن التاريخ ليقدم لنا ما نطمئن به قلوبنا ، وما يدلنا على كثير من الجهود التي قام بها رجال الله الصالحون لجذب قلوب هؤلاء التتر إلى دعوة الإسلام ، غير أن الذي لا جدال فيه أن الانتصار على التتر لم يتحقق بالقوة العسكرية بل بفضل

قوة الدعوة الإسلامية ، فلو لم يعتنق التتر الإسلام في تلك اللحظة الحاسمة لكان المسلمون أعجز — في عالم القوة والأسباب والوسائل — من أن ينتصروا على التتار أو يقوموا بسد هجماتهم .

وقد اعترف المؤرخون كلهم بقوة دعوة الإسلام فيما كتبوا عن التتر ونقتبس هنا ما رواه باحثان من غير المسلمين .. يقول توماس أرنولد في كتابه « الدعوة إلى الإسلام » :

T. W. Arnold, The Preaching of Islam. (1896) p. 5.

« إن المملكة الإسلامية العظيمة قد انهارت على يد التتار في سنوات معدودة وقد انكسرت شوكة الإسلام السياسية ، ولكن استمرت غلبته الروحية ، وهي لا تزال مستمرة دون انقطاع ، ولما خربت قبائل المغول دار الإسلام وداست على مجد الخلافة العباسية ، وأراقت الدماء أنهاراً في شوارع بغداد ، كان الإسلام قد تمكن في جزيرة سومطرة وبدأ يدخل جزر ماليزيا رافعاً رأسه منتصراً مستولياً على قلوب أهلها ، لقد حقق الإسلام أيام انحطاطه السياسي انتصارات روحية بارزة للغاية .. فخلال فترتين انتصر الإسلام روحياً بعد أن هزم عسكرياً .. أولهما أمام القبائل التتارية التي انتصرت على أهله واستولت على دياره ، وثانيتهما وقعت في القرن الحادى عشر الميلادى حين هاجم السلاجقة الأتراك الأمم الإسلامية . ولكن هذه القبائل السلجوقية المبغضة للإسلام والمسلمين ، والغالبة ، اعتنقت دين الإسلام طوعاً ودون إكراه . !!

يقول فيليب حتى في كتابه « تاريخ العرب » :

« .. في أوائل القرن الثالث عشر الميلادى بدا أن الإسلام سوف يفقد جيويته للأبد عندما زحف زماة القبائل المغولية غير المتمدينين على

حدود بلاد المسلمين في الشرق وواجه المسلمون من الغرب حملة الصليبيين من أعداء الإسلام ، ولكن تغيرت الأحوال والموازين في أواخر نفس القرن عندما قذف المسلمون أعداءهم وأعداء الإسلام على الجبهة الغربية في أمواج البحر ، وأعلن الأمير السابع من بين الأمراء التتر الأحد عشر قبول الإسلام وأمر بأن يكون الإسلام دين الدولة ، ولو أن أكثرهم يميلون إلى الديانة المسيحية وتزوج المسلمون بالنسوة المسيحيات ، فكان هذا الانتصار جديراً بأن يفتخر به أهل الإسلام وأبنائه ، وحقق الدين الإسلامي نصراً في معركة أخفقت فيها الأسلحة المادية ، وهو نفس الحادث الذي حدث أثناء حملة السلاجقة على المسلمين . وبعد نصف قرن من الزمان أو أقل ، بدأ « غازان » حفيد هولاكو بعد أن اعتنق الإسلام يحاول إحياء (نفس) الحضارة الإسلامية التي واجهت دماراً وخراباً بيد جده الغاشم الظالم ، وقد وقف نفسه وماله لهذا الغرض .

درس من التاريخ

وقع حادث (التتر) الذي كان بمثابة القيامة لمن شاهده بعينه في أيام الإمام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله (٧٣٨ هـ) فتأثرت حمية هذا الإمام بعد ما شاهد انتكاسة مجد الإسلام فشمّر عن ساعد الجذع من منطلق الحنين إلى الجهاد ودعا المسلمين في الشام ومصر إلى الجهاد وإعلاء كلمة الله ، وأعلن أن « الحرب أنفى للحرب » فخرج في عام ٧٠٣ هـ مع السلطان الناصر ملك مصر ثائراً على التتر إلى ساحة القتال ، وقد حقق في الأيام الأولى من خروجه انتصاراً عسكرياً على التتر ، ولكن غلب عليهم التتر فيما بعد ، ولحق الإمام ابن تيمية بربه بعد ما عاش في قلعة دمشق سجيناً ، وقضى أياماً من حياته في التدريس والتأليف .

لقد كان الإمام ابن تيمية يريد الغلبة على التتر بالقوة العسكرية ، ولكن حلمه لم يتحقق عن هذا الطريق ..

وفي نفس الوقت الذى فشل فيه الطريق الحربى ظهرت قوة الدعوة الإسلامية ، وهى التى قضت على هذه المشكلة ، بل حولت أعداء الإسلام إلى أحياء له ، بعد ما كانوا قد تعاهدوا على قمع جذوره ، فتجربة القرن الثامن الهجرى هذه كانت ولا تزال درساً للمسلمين يعلمهم أن الذود عن الإسلام وإعلاء كلمته هو أهم واجباتهم الأولية . وعلمهم أن يعرفوا وسائل تحقيقه ، ولكن المسلمين لم ينتفعوا بهذه التجربة التى قدمها هذا الحادث التاريخى المشير ، وهذا مما يشير الدهشة لدى كبار الباحثين ، وفى أيامنا هذه يواجه الإسلام من قبل أعدائه الجدد « تتر العصر الحديث » مشكلات وصعوبات ، فهض زعماء المسلمين بأجمعهم ضد المهاجمين الأعداء ، وخاضوا معارك سياسية ، لكن لم يظهر فى هذه الفترة الطويلة زعيم واحد منهم يحسب الدعوة إلى الإسلام جهاداً حقيقياً ويكرس حياته لها .

الإسلام فى العصر الحديث

لقد هجم نابليون بونابرت فى عام ١٧٩٨ م على مصر والشام ، وكان التجار البرتغاليون قد دخوا إلى الهند والدول الآسيوية الأخرى قبل ذلك بقرنين ، ثم بدأ زحف الشعوب الغربية الأخرى ..

وهكذا استولى فى القرون الأخيرة الماضية البرتغاليون والهولنديون والفرنسيون والبريطانيون على العالم الإسلامى كله ، فانقرضت أولاً دولة (المغول) فى شبه القارة الهندية ، ثم (الدولة العثمانية) العظيمة آخر خلافة إسلامية عالمية ..

صحيح أن الاستعمار السياسى قد انتهى فى القرن الحاضر ، ولكن الغرب - لا يزال يسيطر على دنيا الإسلام بواسطة الاستعمار الثقفى ، فإن المسلمين يعتمدون على الدول الأوربية فى كل أساسيات حياتهم من شراء الأسلحة إلى طباعة القرآن الكريم ..

ومن المعروف أنه ما إن برزت مسألة الاستيلاء الغربى على الشرق الإسلامى حتى ظهرت فى العالم الإسلامى حركات كثيرة للدفاع عن الإسلام ولا تزال هذه الحركات باقية . وإن القوة الدافعة الأساسية التى كانت تعمل وراء هذه الحركات الإسلامية كانت مسألة طرد الاحتلال الأجنبى ، فإن هذه الحركات مهما كانت مختلفة فيما بينها ، فقد وجد بينها أمر مشترك وهو أنها كلها حركات سياسية تحمل وجهة النظر السياسية ..

وإذا أردنا جمع هذه الحركات المختلفة والمتباينة فإنه يمكن لنا جمعها تحت راية (الإيمان المطاق بالحل السياسى) للمسائل الناجمة عن الحكم الاستعمارى .

لقد ذهبت جهود هذه الحركات أدراج الرياح ، وبالرغم من التضحيات الجمة بالأموال والأرواح ، فلم يتمكن المسلمون من تحقيق النجاح حتى فى المستوى السياسى ، وهو تحقيق الوحدة السياسية العالمية بين المسلمين .

لقد بدأت حركة الاتحاد الإسلامى ، أو ما عرف بالمؤتمر الإسلامى ، كرد فعل لغروب الدولة العثمانية وسقوط دولة المغول قبلها ، وانقسام العالم الإسلامى الواسع إلى دويلات وحاميات ، وقد بذل المسلمون فى سبيل التخلص من الاستعمار السياسى الغربى دماءهم وأموالهم وأنفسهم ، ونفائسهم بسخاء ، ولكن الواقع الأليم المرير هو أن الغرب حقق سيطرته عليهم مرة أخرى بمكره ودهائه عن طريق العلم والتكنولوجيا ، بينما استنفده

المسلمون كل طاقاتهم في سبيل الاستقلال عن الاستعمار الغربي ، ولكن عندما تحرروا من الاستعمار الأجنبي ، وجدوا أنفسهم — مرة أخرى — خاضعين وراعيين أمام عصابات الجاحدين ، والثائرين على الإسلام ، والمنكرين لفضله .

لقد ضحى المسلمون أكبر تضحية في سبيل إقامة « دولة إسلامية » خاصة بالمسلمين ، ولكن عندما تحقق هذا الحلم ، أصبح أبناء البلد الواحد منقسمين إلى بلدان عديدة مختلفة .

لقد اتحد المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ، ضد إقامة دولة صهيونية في فلسطين ، وبذلوا كل غال ورخيص ، وما كانوا يملكون شيئاً من وسائل أو أسباب لاسترجاع الأراضي المغتصبة ، وبالتالي كان لا بد أن تقوم إسرائيل ، وأن توسع حدودها وطاقاتها على حساب عدد كبير من الدول العربية .

لقد فقد المسلمون كل شيء في كل مجال من مجالات حياتهم في هذا الزمان ، ولم يحصلوا على شيء ، ولكن على حد تعبير الإنجيل : (إن الأجير يجمع أجره في كيسه مثقوبة) .

والغريب أنه في مثل هذا الجو القائم المثير لمشاعر اليأس والتقنوط ، لا يزال يوجد مجال يزحف فيه الإسلام ، بينما يفشل المسلمون بالرغم من تضحياتهم وجهودهم في المجالات الأخرى ، ولكن في مجال الدعوة الإسلامية — ومع إهمال المسلمين لها — لا تزال النتائج مشجعة حيث بدأ المنبوذون والطبقات المستضعفة في الهند وكثير من المفكرين الأوروبيين يعتنقون الإسلام وبدأت الطبقة المثقفة اليابانية تميل إلى الإسلام بسرعة ، واتجه الشعب الأسود في أميركا إلى اعتناق الإسلام، وبدأت القبائل المختلفة

فى إفريقيا تلتف حول راية الإسلام زرافات ووحدانا .. كما اعتنى كثير من المثقفين فى كل بلد تقريباً الدين الإسلامى .
وكل هذا دون أن يبذل المسلمون أقل الجهد وأقل المال ..

فرص أضعتها

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وفى النصف الأول من القرن العشرين كان قادة المسلمين وزعمائهم ينطحون رؤوسهم بصخور سياسية دون جلوى ، وخلال هذه الفترة ظهرت إلى الوجود أحداث تشير إلى أن المجال الحقيقى هو مجال الدعوة إلى الله ، وليس الأمر تصادماً أو صراعاً سياسياً مع الأمراء والولاة .. ونذكر على سبيل المثال القصة البالغة الدلالة التالية :

« كان الإمبراطور (ميكادو) اليابانى قد أرسل فى زمن وجود السيد جمال الدين الأفغانى « بالآستانة (سنة ١٨٩١ م) كتاباً إلى السلطان عبد الحميد يذكر فيه مودته ويقول : إن كلا منا ملك شرقى ومن مصلحتنا ومصلحة شعوبنا أن نتعارف ونتراور ، وتكون الصلات بيننا قوية تجاه الدول والشعوب الغربية التى تنظر إلينا بعين واحدة .. إنى أرى شعوب الإفرنج يرسلون إلى بلادنا دعاة لدينهم اعتماداً على الحرية الدينية عندنا ، ولا أراكم تفعلون ذلك ، فأنا أحب أن ترسلوا إلينا دعاة يدعون إلى دينكم الإسلامى ويمكن أن يكون هؤلاء صلة معنوية بيننا وبينكم » (١) .
وعندما وصلت هذه الرسالة من ملك اليابان إلى عاصمة تركيا كان السيد « جمال الدين الأفغانى » والعلماء الآخرون موجودين هناك فأراهم

(١) انظر محمود أبو رية : جمال الدين الأفغانى ص ٣٢ لجنة التعرف بالإسلام القاهرة .

السلطان عبد الحميد الثانى هذه الرسالة ، ولكن أحداً منهم لم يعط الرسالة الاهتمام الجدير بها ، ورجع رسول امبراطور اليابان إلى وطنه حاملاً فقط رسالة من السلطان تحتوى على كلمات الامتان الرسمية .

إن السبب الرئيسى فى عدم انتهاز هذه الفرص الذهبية إنما هو إغفال المسلمين لأهمية الدعوة ، وانكبابهم على الانشغال بالشئون السياسية ، وقد ظلوا يحسبون أن هذه الشئون هى التى يجب أن تستولى على كل اهتمامهم ، وظلوا يغضون النظر عن أهمية نشر الإسلام وتبليغ رسالته إلى غير المسلمين مع أن الشعوب كانت تأتيمهم ، وتقرع أبوابهم للانتفاع بما لديهم من رسالة الإسلام الخالدة ..

من قضاء الله وقدره

اعتنق اللورد « هيدى فارق » عضو الأسرة المالكة البريطانية الإسلام فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى ، وأعلن فى النصف الثانى من القرن العشرين رئيس دولة الجابون (الإفريقية) محمد عمر بانكو اعتناقه للإسلام ، وشاهد فى هذا الزمان أيضاً أن الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، والملاحظ أن هؤلاء المسلمين الجدد ليسوا من الشعب العادى ، بل هم من طلائع رجال الطب « مورييس يوكاى » وفلسفة « روجيه جارودى » والهندسة والعلوم وأصحاب المناصب العليا فى الحكومات المختلفة .

ومع حالة المسلمين التى بلغت صورة مزرية من الذل والاستعباد فى بلاد الهند ، فقد ظهرت فجأة قوة الدعوة إلى الإسلام ، وبدأت الطبقات المختلفة تقبل على الإسلام على نطاق واسع .

وهذا الوضع العجيب لا يمكن تفسيره إلا من خلال هذا الاقتباس

الذى أخذناه من مقال « كرشناذهن بزدا » من « راميشور بغرب البنغال » ، وهو المقال المنشور في صحيفة « ريدينيس الأسبوعية الهندية » والذى يقول فيه « إن الهندوس يعتقدون في التناسخ والنشأة الجديدة وحقا فلقد أعادت الهندوسية ولادتها الجديدة في (ميناكثي فورم) بولاية (تامل نادو) في منتصف شهر فبراير في شكل اعتناق أبنائها الإسلام زرافات ووحدانا . إن وقائع دخول الإسلام التي تتكرر في مشارق الأرض ومغاربها (بالرغم من الحالة المزرية للمسلمين) تشير إلى أن هذا هو المجال الذي ينتظر الجهود والتضحيات .. وأما المجالات الأخرى التي تبذل بعض الحركات الإسلامية فيها جهودها ، فلا قيمة لها عند الله فكأنما أحبط الله أعمالها ، بينما نرى في المجال الذي لا جهد فيه للقيادات الإسلامية (وهو الدعوة) نتائج عالمية ، وثمراً طيبة ، فكأن الله يبين لنا أن مجالات العمل التي يجتهدون فيها ليس فيها معونة الله وإنما تتجه معونته إلى أرض خصبة إلى حد ينبت فيها نباتها حتى بغير عمل وجهد ..

ولو أن المسلمين بذلوا جهودهم في مجال الدعوة إلى الإسلام فسوف يتضاعف الإنتاج وسوف يتحقق ذلك (الحلم) الذي يحلم به المسلمون وهو غلبة الإسلام وانتشاره .. وازدهار وضعهم الحضارى ، ولكنهم يبحثون عن تفسير (للحلم) الذى يحلمون به في مجالات أخرى عقيمة .

الإسلام عمل وحيد

أشاد المفكر والأديب الغربى المشهور « جورج برنارد شو » (١٩٥٠) بذكر الإسلام ، حيث قال : « إذا كان هناك دين يستطيع أن يسود بريطانيا في مائة السنة القادمة ، بل يسود أوربا كلها ، فلن يكون هذا الدين إلا الإسلام ، فإني لأكن في نفسى أعظم تقدير لدين محمد نظراً

لما يوجد فيه من قوة مميزة ، فهو الدين الوحيد الذى يستطيع أن يستوعب الدنيا المتغيرة ، كما يملك القدرة على جذب القلوب على مر العصور .
وكان المفكر الهندوسى الهندى « سوامى وويكا » قد كتب ، فى سنة ١٩٠٣ يقول : « إن الوحدة الحقيقية هى آخر كلمة فى عالم الدين والفكر ، وهذا هو رأى الذى ينتهى إليه الإنسان بالنسبة لكافة الأديان ، ولكنى أرى أن الدين الذى بلغ القمة فى المساواة والحب والتعاون بين البشر إنما هو الإسلام فقط ، ولهذا فإنى أعتقد اعتقاداً جازماً أن فلسفة (الفيدا) لا قيمة لها بدون الإسلام العملى ، وأن الهند التى تمثل نقطة اتصال بين الهندوسية والإسلام يجب أن تخرج فى المستقبل القريب من الاختلافات والتزاعات حتى تصبح حصناً منيعاً محكماً » .

والواقع أن الإسلام هو الأمل الوحيد ليس للمسلمين فحسب بل للعالم كله .. إن الدنيا كلها رغم نهضتها المادية تضطرب وتتعطش للهداية الربانية ، والمسلمون مظلومون فى كل مكان ، لأنهم أهملوا أداء مسئوليتهم وغفلوا عن نشر الهداية الإلهية التى يملكونها بين الآخرين من أبناء جلدتهم .

إن الدنيا معرضة للعقوبة الإلهية بسبب حرمانها من الحق ، والمسلمون معرضون للعقوبة لإغفالهم واجب نشر الرسالة .. ولسوف تبقى هذه الحالة طالمابقى المسلمون متجاهلين مسئوليتهم ، إن الانشغال بشئون لا تمت بصلة للدعوة ، وتسمية تلك الشئون « دعوة » ليس إلا جريمة تضاف إلى كثير من الجرائم التى سقط فيها المسلمون .. ولسوف يحرمون بهذا الإهمال من رحمة الله سبحانه .

لقد كتبت سيدة مسيحية من استراليا فى كتابها « فهم الإسلام » تقول :
إن الملامح الجملة لدين الإسلام تدلنا على أن فيه عطاء وافراً لهذا

العالم المضطرب ، والحق أن الإسلام يبدو أكثر غالى الثمن ، هجره المسلمون وخذلوه ، فإن حياة المسلمين تختلف تماماً عما عرفنا من مجد في هذا الدين وأخلاقياته ، وما لم يعد المسلمون إلى حقيقة الإسلام فسيظلون متخلفين ومتخبطين في مؤخرة ركب الإنسانية ، لأن الإسلام هو الحل الناجح والعلاج الناجع لكل داء ، وإنما هو الذبراس الوحيد للمسلمين ، ليس لأنفسهم فحسب ، بل للعالم الإنساني كله .

لقد أوضحنا فيما سبق — من خلال استعراض التاريخ — نباغ ما أنزل الله « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس » (المائدة : ٦٧) ، وعندما نزلت هذه الآية ، وتلاها الرسول فإن هذه (العصمة من الناس) لم تكن قد ظهرت إلى حيز الوجود ، لقد كان هذا التاريخ محتبئاً خلف ستار المستقبل . وفي هذه الحال فإن الإيمان بهذه الكلمات وما تقتضيه من وقف المنهج والأموال في سبيل الدعوة كان أمراً في غاية الصعوبة ، لكن دراسة التاريخ — بعد وقوعه — أسهل بكثير من عملية استكشافه واستجلائه قبل وقوعه .

إن المسلمين الذين عاشوا القرن الهجري الأول أدوا أصعب عمل في التاريخ .. إنهم استكفوا الحدث قبل وقوعه ، وعملوا له حسب مقتضياته .

ومع أننا وكل إلينا أيسر عمل تاريخي بعدهم ، إذ أننا نمشي على أرض ممهدة ، وما علينا إلا أن نكرر العمل بالمبدأ الذي تحقق في التاريخ ، أى أننا على العكس من أسلافنا الذين ساروا على درب جديدة ، ومع ذلك فإن أسلافنا نجحوا في الامتحان الصعب المجهول وإننا فشلنا في الامتحان السهل المكرور .

لقد وردت في القرآن الكريم آية تقول : « إن الله لا يهدي القوم

الكافرين» (المائدة : ٦٧) ونحن نستطيع استجلاء جانب هام من هذه الآية موجزه أن المسلمين الذين قاموا بنشر الدين وفق طرق علمها الله لهم قد تعهد الله لهم بأن يعمى أبصار الكافرين ، حتى لا يتمكنوا من القيام بمؤامرة مؤثرة على المسلمين ، وحتى لا ينجحوا في مسهم بسوء يقضى عليهم . وهناك جانب آخر نستجليه من هذه الآية يتصل بذات الداعي ، وهو أن المسلمين لو لم يقبلوا هذا المنهج الفكرى والعملى رغم تعهد الله لهم بالنصر ، وسلكوا طرقاً أخرى غير التى فرضها الله عليهم ، فإنهم لن يوفقوا فى مساعيمهم ، ولن يهديمهم الله للسير فى اتجاه الفلاح . وبالتالي سوف تضعف جهودهم مهما كانت كبيرة وتصبح فاقدة النتيجة .

والحق أن المسلمين فشلوا فى مساعيمهم فى العصر الحديث مع أنهم لم يدخروا وسعاً فى إنهاض أنفسهم من كبوة الإغطاط ، وضحوا فى ذلك بمهجهم وأرواحهم ، ولكن ضاعت تضحياتهم ، وصدق عليهم ما ورد فى الإنجيل « تذرّون كثيراً وتحصدون قليلا ، تأكلون ولا تشبعون ، تشرّبون ولا يسكن الغليل ، ويجمع الأجير أجرته فى كيس ذى ثقب ، أملتكم كثيراً وحصلتم قليلا وعندما رجعتم إلى البيت ضيعتم مصولكم » .

لقد بذل المسلمون الكثير فى العصر الحديث ، ولكن الله أذهب عملهم أدراج الرياح . وهذا تنبيه لهم من الله - لو عقلوا ووعوا - كى يتجهوا إلى الدعوة .. ولعلمهم - قبل يوم القيامة - يعقلون .

طريق الفطرة

لقد خلق الله لكل شيء قدره ، فلا يتعدى حدوده ، ولا ينقص منه شيء .. إن الشمس والقمر والنجوم تسير على مسارها بانضباط وانتظام بالغين ، دون أن يحدث خلل للحظة واحدة .

والجنين يتكون في بطن المرأة وينشأ وينمو رويداً رويداً ، حتى يخرج من بطنها في شكل إنسان كامل في وقت معين .. وهكذا جعل الله لكل شيء قدراً « وكل شيء عنده بمقدار » (الرعد : ٨)

وبهذا الطريق المحكم يمكن أن يجرى سير كل شيء إلى مستقره بدون أى تصادم « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » (يس : ٤) .

وإن هذا الطريق لا يقتصر على تلك الأشياء التي تظهر فيها النتيجة بحكم الله وقدره مباشرة ، بل إن هذا الطريق ينطبق أيضاً على الأمور والأعمال الإنسانية حيث تظهر الأحداث بجهود من الإنسان .

لقد اعتاد العرب قديماً أنه إذا اشتد غضب أحدهم على زوجته يطلقها ثلاث مرات أو أكثر إلى مائة مرة ، ثم كان يخرجها من البيت مباشرة ، فكانت هذه الأحداث تسفر عن عدد من المشكلات الشخصية والعائلية ، ولكن القرآن قرر طريقاً للطلاق هو أن الإنسان إذا أراد الطلاق فعليه أن يطلق بحساب العدة ، وأن يراقب العدة باهتمام ، وعليه أن يطلق بين طهرين وشهرين متتاليين ، ثم في الطهر الثالث للشهر الثالث أن يمسك زوجته بمعروف أو يسرحها بإحسان ، فهذا يصل حدث غير سار بالتدريج

الفطرى إلى منتهاه ، والطريق الآخر للطلاق أن المرأة إذا كانت حاملاً وظهر حملها فترجأ عدة الحمل إلى وضع الحمل ، لكى يلتزم الشخص الذى سبب الحمل أن ينفق على زوجته فى بيته حتى تكمل مدة وضع الحمل.

وثمة مزايا للعمل المرسوم بالصبر والتأني والتدرج بدلاً من التسرع والاستعجال ، فربما وجد كل من الطرفين إمكانيات جديدة قد تكون غير متوقعة من قبل ذلك ، وإن عملاً عائلياً يسير سيره الطبيعى ليلبغ إلى منتهاه دون أن يخلق تعقيدات وملابسات عويصة لحرى بأن يصل إلى غايته بأقل الخسائر ، وبطريقة كريمة ، وإن الله ليصف هذا العمل بأنه بالغ أمره : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدراً » (الطلاق : ٣) .

فإذا اعتمد شخص على الطريق المقدر من الله ، وآمن بأنه أحسن طريق واحتمل مرارة الصبر والانتظار ، فإن الطريق يكون ممهداً للوصول إلى الغاية كما أن الالتزام بمنهج الله الذى وضعه لحياة الإنسان يراعى كافة الجوانب كاملة ، لقد قرر الله نظاماً دقيقاً صحيحاً لعمل كل شىء بعلمه المحيط والشامل لكل شىء ... ولن ينجح شخص فى هذه الدنيا التى خلقها الله عند مخالفته لهذا النظام الذى وضعه المحيط بكل شىء .

التدبير الإلهي الخفي

لقد ورد فى القرآن عند ذكر الأحداث الواقعة فى الكون قوله تعالى : « يدبر الأمر يفصل الآيات » (الرعد : ٢) ، فعلم أن القرآن والكون تعبيران لحقيقة واحدة ، وما فُصِّل فى الآيات من المبادئ والحكم جُمِعَ أساساً لهذا الكون ، فالكون تصديق عملي للقرآن وتعبير آخر : إن القرآن إظهارٌ لفظي للحقيقة الربانية وإن بقية الكون إظهار عملي لتلك الحقيقة ..

إن الله يريد أن يبني أهل الحق بناءهم على أسس متينة في مواجهة الباطل وأن يشيدوا صرح الدين بالتضحية بالمال والوقت وبناء شخصيتهم القوية ، لتكون راسخة وقوية لا يحطمها أعداء الله ولا ينال أحد منها ، إن الله يريد أن يرى دينه غالباً على الأرض . وإن المسئولية لتقع على عاتق أهل الإيمان لكي يقوموا بدورهم في تحقيق ذلك بجهودهم وجهادهم وبعثتهم وعتادهم . وقد ضرب الله مثلاً في القرآن للعنكبوت فقال : « وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت » (العنكبوت : ٤١) .. وفي مكان آخر ضرب مثلاً للحديد : « وأنزّلنا الحديد فيه بأس شديد » (الحديد : ٥٢) ، والمعروف أن بيت العنكبوت ينهار بهزة خفيفة ، وبللمسة من يد أو خشب ولكن بيت الحديد يتصدى للطوفان ويقف في وجه الأعاصير .

ولقد أراد الله بهذين المثالين أن ينصح المسلمين أن يبنوا بيت الدين على غرار « بيت الحديد » لا مثل بيت العنكبوت .

وإن الجانب المهم للبناء الراسخ المتين هو الجانب الذي يتضح لنا من تعاليم ديننا ، وهو الاستعانة بالتدابير الخفية الإلهية في تفويض نفوذ العدو وإقامة الحق على أسس سليمة قوية ، وإيضاح هذا المبدأ ننقل آيتين من القرآن :

« قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون » (النحل : ١٦) .
والآية الثانية :

« هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله

من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار » (الحشر : ٢) .

ويتبين من هذه الآيات أن من حكمة الله وسنته أن تكون جذور الأعداء هشة ، وبطل هذا شأنها إلى حد القضاء عليها دون أن تشعر ، فيخر عليهم سقفهم على حين غفلة منهم .

إننا نرى أن القرآن يسوق بعض الأمثلة التي تبين طريق الله وسنته ، وإن هذه الأمثلة أمثلة رمزية ، ولكن المقصود أن ندرك منها حكمة الله ، ونعيش حياتنا معتبرين مسترشدين بهذه الآيات التي تتلى في كل زمان ومكان .

ومن هذه الأمثلة القرآنية هذه الأرضة التي هي دودة عدوة للإنسان وهي دودة صغيرة حجماً مثل النملة ، وأقل قوة منها وهي لا تتحمل شدة الحر أو البرد ، ولا تقوى على الحياة في هواء طلق أو في شمس ولذلك تسير في أنبوب أو نفق من الطين ، ولكن برغم هذا الوهن والضعف تلحق بالإنسان ضرراً كبيراً ، والسر في ذلك أن الأرضة تعمل بصمت ودأب ولا يتنبه الإنسان لها إلا حين تكمل عملها ، وإذا كان باب غرفتك خشياً فإن الأرضة تدخل لائذة في جناحيه ، وتأكل الخشب بصمت ، وترك الطلاء الجميل مثل الورق على سطح الخشب ، وفضلاً عن ذلك فإن مقدار ما تأكل من خشب تملؤه بالطين ، وهكذا تأكل الأرضة الخشب كله دون أن تقف أنت على ذلك لأنها تترك السطح الظاهري ، وتأكل من الداخل ولأنها تسد الفراغ بالطين فلا ينهار الخشب ، بل يبقى قائماً ، وعندما ينتهي الأكل يسقط الباب واهياً على الأرض .

ومن زاوية أخرى نجد مثالا للكلب ، فالكلب يريد أن يعض الإنسان ولكن قلما ينجح في عضه والسبب أنه ينبع من بعيد عندما يرى الإنسان

وبالتالى فإن الإنسان يتنبه ويدافع عن نفسه ، وهكذا تنجح (الأرضة) فى خطتها ويفشل الكلب فى خطته . . وليس نصيب الكلب إلا النباح أما نصيب الأرضة فأكثر نجاحاً من الكلب لأن الأرضة تعمل بصمت ، واستمرار ، وأما الكلب فكثير النباح والعويل .

إن القرآن يسوق لنا هذين المثالين ليخبرنا عن طريق النجاح ويدلنا على أسباب الفشل .. ونحن نتبين من القرآن أن ميزة الإنسان هى عدم الصبر والاستعجال ، ويعتبر الاستعجال أكبر ضعف فى الإنسان ، وطريق الصواب هو — دائماً — طريق الأناة والصبر والجلد وعدم التعجل فى الوصول إلى النتيجة .

والاستعجال هو تمنى الحصول على النتيجة دون استيفاء الشروط اللازمة للحصول عليها ، فمثلاً شجرة « الحور » يكتمل نموها فى مدة مائة سنة، فإذا تمنى الإنسان أن يستقر الشجر ويكتمل فى بضع سنين فإن هذا استعجال أمر لا يمكن تحقيقه فى هذه الدنيا ، لأن الله لا يغير سنته وفق هوى من يتمنى ويستعجل ويريد تغيير خطة الله الطبيعية فى هذا العالم .

إن هذا النظام محكم إلى أبعد حدود ، وليس فيه استثناء لأحد ، ومن يتعدّ حدود الله وينتهك نظامه فسيعود ذلك بالضرر عليه .

ونسوق فى هذا المقام مثلاً من قصة موسى عليه السلام عندما وصل إلى صحراء سيناء مع قومه : وفرض الله على موسى عليه السلام مدة شهر واحد للعبادة على جبل الطور ووعده أن يمنحه الشريعة بعد قضاء هذه الفترة وبموجب هذا كان على موسى عليه السلام أن يصل إلى الطور فى مستهل شهر ذى القعدة ولكن موسى عليه السلام وصل قبل الموعد بعشرة أيام فسأل الله تعالى موسى عليه السلام :

« ما أعجلك عن قومك يا موسى ؟ قال هم أولاء على أثرى وغجلت إليك رب لترضى . قال فإنا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامرى »
(طه : ٨٣ - ٨٥) .

لقد كان موسى عليه السلام مشتاقاً لأن يصل سريعاً إلى الطور ، ففوض مسئولية رعاية بنى إسرائيل إلى أخيه هارون ، ووصل إلى الجبل قبل الموعد بعشرة أيام . ولا شك أن هذا العمل كان دافعه الحصول على رضى الله ولكن ذلك ألحق الضرر بقومه ، وقد كان موسى عليه السلام قائداً ورشداً لقومه . ولم يكن هارون عايه السلام حتى ذلك الوقت هيمنة على القوم . ولم يستقر أمره عليهم بعد ، فعندما غادر موسى عليه السلام إلى الجبل استطار شرّ المفسدين من القوم ، وسيطروا وقادوا بنى إسرائيل إلى عبادة العجل ، فكان هذا الاستعجال سبباً فيما ظهر من بنى إسرائيل رغم أن دافعه التقرب إلى الله . ومع ذلك فإن الله لم يفعل ما كان يحرض عليه موسى عليه السلام ، ولم يمنحه الألواح قبل الميعاد ، ولم يكن يوسع موسى بالرغم من الإخلاص وحسن النية إلا أن ينتظر المدة المقررة ، مع ما تحمله من ثمن استعجاله ومخالفته لطبائع الأمور .

منهج الإصلاح التدريجى

لقد بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بنظامه لتحقيق السعادة والفلاح للإنسان .. وبالتالي كان لابد من تحريم الخمر .
ولكن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يمنع الناس عن الخمر مدة تقرب من نصف السنوات التى كانت بعد البعثة ..
لقد ترك الناس على حالهم . فقد كان صلى الله عليه وسلم فى أول الأمر يهذب الطبائع بذكر الله وتوحيده والإنذار بالآخرة :

وبعد هذه المدة نزلت الآية الأولى عن الخمر ، فتحدثت عن كراهية الخمر وما فيها من آثام ومنافع ، لكي نستعمل الأذهان لقبول التحريم : يسألونك عن الخمر والميسر قل ليهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ..

إثر هذا بدأ بعض ذوى العقول يفكرون في تحريمها وذهبوا يتساءلون عنه . ولم يكن قد نزل إلى ذلك الوقت الحكم البات الصريح بالتحريم .

ثم نزل حكم آخر عن الخمر في العام الرابع للهجرة ولكن لم يكن ذلك من قبيل النهي الواضح ، بل كان يتضح من البيان أن الخمر ليست بشيء مستحسن ، كما كانت تفرض القيود على تعاطيها في أوقات الصلاة : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » (النساء : ٤٣) . وبعد هذا الحكم بمدة قصيرة نزلت حرمة الخمر في القرآن « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة نهل أنتم متمتون » (المائدة : ٩١) .

لقد أصبحت العقول مهياة لهذا الحكم ، فما إن نزلت هذه الآية حتى أعان الناس : « انتهينا ربنا انتهينا ربنا » وأسألوا أوعية الخمر على الأرض . روت عائشة رضي الله عنها عن حكمة التدريج التي اتخذت في حرمة الخمر فقالت : إنما نزل أول ما نزل سورة من المفضل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام ، نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول ما نزل لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبداً .. ولو نزل لا تزنا لقالوا لا ندع الزنا أبداً (ورد في البخاري) .

الإقدام بعد الاستحكام

من أهم الأهداف التي بُعثت لأجلها رسول الله صلى الله عليه وسلم في العرب تطهير الحرم من كافة الأوثاب والأدناس من الشرك ، وإعادته إلى مركز التوحيد الذي كان أيام إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

فعندما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عدد الأصنام ثلاثمائة وستين صنماً ، وكانت هذه الأصنام موضوعة في الكعبة ، وكان المشركون يطوفون الكعبة عراة ، وقد غيروا أيام الحج ، وابتدعوا (النسيء) لهذا الغرض . وفي وسط هذا عاش النبي صلى الله عليه وسلم (١٣ سنة) تقريباً في مكة ، ولكن لم ينهض أبداً لكسر الأصنام ، ولم يقم وأصحابه بمظاهرات احتجاجية في طرق مكة ضد هذه الأصنام ، بل ظل يدعو إلى التوحيد والآخرة ، وامتنع عن اتخاذ أية خطوة عملية ضد الأصنام .

ويظهر من الوثائق التاريخية أنه عندما تم فتح مكة في عام (٨ هـ) وتولى رسول الله صلى الله عليه وسلم السلطنة في مركز العرب ومقره (أم القرى) ودخل مكة جالساً على من الإبل ، بدأ يطوف الكعبة فكان حوله ٣٦٠ صنماً ، وكانت بيده جريدة من شجرة فبدأ يضرب كل صنم بالجريدة حتى سقط كل صنم من الأصنام على وجهه على الأرض ثم طُرخت جميع هذه الأصنام ، وعندما كان يفعل ذلك يردد بلسانه هذه الآية « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » (الإسراء ٨١) إن تطهير الحرم من الأصنام كان مطلوباً من اليوم الأول ، ولكن لم يمس الرسول هذه الأصنام قبل الوصول إلى القوة المتدرجة ، والحصول على السلطة ، وقد ركز كل انتباهه على إثبات التوحيد والدعوة إلى الآخرة ولم يقيم بعمل التطهير الفعلي إلا بعد أن سيطر على مكة على الوجه الأتم ولم يبق هناك من يقاومه في هذا العمل .

اتخاذ طريق الحكمة وغم السلطة والقوة

عندما بعث النبي صلى الله عليه وسلم كان العرب يطوفون حول الكعبة عُرّة ويرون أن الكعبة أقدس مكان على وجه الأرض ، فيجب على الإنسان الطواف حوله متخلياً عن جميع الحواجز حتى من الثياب .. كان ذلك عيباً كبيراً يكرهه النبي صلى الله عليه وسلم أشد الكره ، وقد أقام (١٣ سنة) في مكة بعد البعثة ولم يحتج على ذلك .. وفي أخريات أيام إقامته بمكة عندما بلغ عدد أتباعه مائة مسلم كان بإمكانه أن يتخذ من هذه العادة السيئة قضية ويقوم بمظاهرة ، ولكنه لم يفعل ذلك ، وامتنع عن اتخاذ مثل هذه الإجراءات امتناعاً كاملاً .

ثم مضت الأيام وحرك الله التاريخ نحو الأفضل حتى تم فتح مكة في عام (٨ هـ) وقد كانت مكة مركزاً قيادياً للأقطار العربية حين ذاك ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتخذ أية خطوة لمنع طواف العرّة حول الكعبة . وعندما جاء موسم الحج بعد فتح مكة بأربعة أشهر ، حج المشركون على سنتهم عرّة ، ولكنه لم يفرض الحظر عليهم في هذا العام أيضاً بل حج المسلمون على طريقتهم ، والمشركون على طريقتهم . ثم حلّ موسم الحج في العام التالي ، وكان ثاني حج بعد قيام الدولة الإسلامية في العرب (وقلعتها مكة) ، ولم يمنع النبي صلى الله عليه وسلم المشركين عن عاداتهم السيئة هذه المرة أيضاً ، بل حج المسلمون على طريقتهم ، وكان أميرهم في هذا الحج أبو بكر رضى الله عنه ، وحج المشركون على طريقتهم ، ولكن في السنة التالية قبيل موسم الحج بعث النبي صلى الله عليه وسلم علياً رضى الله عنه إلى مكة وعلمه أن يعلن في الحج أنه لا يقصد أحد من المشركين الحج بعد عامهم هذا ، ولا يطوفن أحد عارياً حول الكعبة (لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان)

وهكذا لم يذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم رغم فتح مكة إلى مكة للحج في عام (٨ و ٩ هـ) وقال : (إنما يحضر المشركون فيطوفون عراة فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك) - تفسير ابن كثير - سورة التوبة ، إنه تحمل الحج بطريقة المشركين بعد فتح مكة عامين ولم يحج بنفسه حتى فرض الحظر في العام الثالث من الفتح سنة (١٠ هـ) ، ثم سافر إلى مكة ، وأرسى مناسك الحج ، وكان ذلك آخر حج لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي يُدعى « بحجة الوداع » .

ضرورة التغير بطريقة طوعية

لقد أنشأ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام نظاماً للحج بعد بناء الكعبة وكان ذلك النظام مرتباً على التقويم القمري ، ولذلك كان يأتي في مواسم مختلفة ، أحياناً في الشتاء وأحياناً في الصيف ، ورأى أهل مكة بعد ذلك أن هذا الاختلاف والتغير في مواسم الحج يلحق بهم ضرراً تجارياً ، وجعل أهل العرب من الحج مكسباً ومرزقاً لهم ، وكان ذلك مصدر رفاهية وهناء لهم بالطيم ، ولكن اختلاف مواسم الحج كان عقبة في طريق انتعاش معيشتهم .. وسبب ذلك أن النخلة في العرب تصبح يانعة في أيام الصيف وتكون مصدر رخاء لهم تزدهر بها التجارة وتنتعش المعيشة ويزداد نشاط الحل والترحال ، ولذلك يكون الحج في موسم الصيف راحاً وباعثاً على التحسن المعيشي ، وعلى العكس من ذلك ، فإن الحج في الشتاء تبور فيه التجارة ، وقد غلبت المصالح الدنيوية على المصالح الدينية لدى أهل مكة فاجأوا إلى طريق النسيء « Intercolition » الذي اقتبسوه من اليهود والنصارى ، فأدخلوا التعديل على النظام الزماني الديني وحولوا الحج إلى التقويم الشمسي .

والمعروف أن التقويم الشمسي يختلف عن التقويم القمري بزيادة أحد عشر يوماً ، فلجعل التقويم القمري معادلاً للتقويم الشمسي أخذ أهل مكة يزيدون أياماً فيه حتى يتعادل التقويمان ، ويترتب على ذلك زيادة ثلاثة أشهر بعد كل ثماني سنوات في التقويم القمري . فكان شهر أُرْجىء (أُنْسى) بعد كل ثلاث سنوات . ويدخل هذا التغيير في الأشهر الحرام بما فيها شهر ذى الحجة ، فكانت الأشهر تتغير كل ٣٣ سنة وكذلك كانت تتغير مواسم الحج تبعاً لها ، ثم بعد دوران ٣٣ سنة تعود الأشهر إلى مكانتها الأولى ، ولما ظهر الرسول كان من مسؤوليته صلى الله عليه وسلم أن يبدل هذا المرسوم الجاهلي ويقرر أيام الحج في ذى الحجة بالتقويم القمري جرياً على سنة إبراهيم عليه السلام ، وعندما تم فتح مكة وقوى مركز الرسول كان بإمكانه أن يغير هذا المرسوم فوراً ويعلن إلغائه ، ولكنه لم يفعل ذلك .

لقد كان الحج في عام (٨ و ٩ هـ) يصادف ذا القعدة وفق المرسوم الجاهلي ، وكان يصادف حج عام (١٠ هـ) بعد مضي ٣٣ عاماً شهر ذى الحجة ، ولو كان يريد تغيير الرسم فوراً لأعلن بعد فتح مكة بأن الحج في العام المقبل يكون في ذى الحجة طبقاً لسنة إبراهيم عليه السلام ، وليس في ذى القعدة ، ولكنه لم يتعجل بل انتظر عامين ، وحتى بعد الحصول على السلطة صبر على حج الناس في ذى القعدة عامين متتاليين حتى لا يحدث ارتباك . ولكنه في العام الثالث عندما صادف موسم الحج شهر ذى الحجة (بطريق طبيعي) أعلن أن الحج سيقى دوماً في ذى الحجة فقال في خطبته في حجة الوداع في العام العاشر للهجرة .:

« إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » .

الإصلاح بدون هدم العرف المتبع

من غزوات النبي صلى الله عليه وسلم غزوة تُدعى المريسع أو غزوة بنى المصطلق ، وقد وقعت في عام (٥٥ هـ) فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن حارث بن أبي ضراو رئيس قبيلة بنى المصطلق عبأ جيشاً ، وينوى القيام بحملة على المدينة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة بن حصيب الأسلمي للاستخبار فأَيَّد الخبر ، فعبا رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشاً وبادر بالحملة عليهم فلم يقدروا على المقاومة وقتل منهم عشرة أشخاص وأسر الرجال والنساء والأطفال وحصل المسلمون من الغنيمة على ألفي رأس من الإبل وخمسة آلاف رأس من الغنم ..

وكان الذين أسروا ينتمون إلى مائتي أسرة ، وكان رسول الله ﷺ يريد استمالتهم إلى الإسلام بالإحسان إليهم ، ولكنه لا يريد ذلك بكسر المرف والعادة ، وكان هؤلاء الأسرى ملكاً لرجال الجيش حسب العرف المتبع والتقليد ، واو أعلن حريتهم لكان ذلك تحطياً للتقليد الشائع والعرف المتبع .. فلهذا دبر تدبيراً حكيماً ناجحاً وهاذا .

لقد كان من بين أسرى هذه الحرب بنت رئيس القبيلة (الحارث ابن أبي ضراو) وتسمى جويرية وكانت أرملة ، وعند تقسيم الغنائم نالها (ثابت بن قيس الأنصاري) وأراد ثابت بن قيس أن يكتبتها إذا دفعت مبلغاً معيناً فيمكن به عتقها ، فجاءت جويرية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطلبت معونة منه لأداء ثمن المكاتب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل أدلك على أمر خير من هذا وهو أن أدفع المال وأنزولك بعد العتق ؟ فقبلت هذا العرض .

وبهذا تحررت جويرية وزوجت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،

ولما كانت بنت رئيس القبيلة فقد أصبح رسول الله صهر أ لجميع رجال القبيلة جرياً على العرف القبلى ، ولما علم المهاجرون والأنصار بأمر علاقة المصاهرة شق عليهم أن يبقوا رجال القبائل عبيداً لهم ، فأعتقوهم وأصبحت قلوب رجال بنى المصطلق بسبب هذه المعاملة والمصاهرة لينة عن ذى قبل ، وفى ضوء هذا السلوك الحسن الذى لا يوجد له نظير فى النظام القبائلى تأثروا كثيراً ، ودخلوا زرافات فى دين الله .. ولذلك قالت عائشة - رضى الله عنها - عن جويرية : « ما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها » .

الحركات المعاصرة

لقد قام المسلمون فى هذا العصر بحركات عديدة لإحياء الإسلام . ولقد اقيمت كثير من هذه الحركات قبولاً وشعبية من جماهير المسلمين غير أن هذه الحركات لم تنجح فى تحقيق الأمانى المنشودة ، والسبب فى هذا الفشل أن هذه الحركات لم تعتمد منهج الفطرة الطبيعى ، ولم يتبعوا سنة الله التى تقررت لكل عمل ، والتى نجد نماذجها موجودة فى الكون ، بل اتخذت بعض هذه الحركات طريق الفوضى والصخب وإحداث القلاقل والبلبله ، ولم تتخذ طريق العمل الصامت الدءوب ، وقد أرادوها قفزة كبيرة ليصلوا إلى الغاية بين عشية وضحاها ، ولم يسيروا سيراً طبيعياً متأنياً ، ولم يتيبنوا طريق الدربة والثأنى ورباطة الجأش ، بل عمدوا إلى التسرع والتعجيل ، فقاموا بأعمال كبيرة قبل أن يدعموا مواقفهم ، وتحركوا بالعواطف الملتبة بدلا من الحكمة والتعقل ، ولم يشيدوا أساسهم ، بل بدأوا ببناء الصرح الأعلى ، ولم يلتزموا بانتدرج من القليل إلى الكثير ، بل أرادوا إحراز الكثير من أول يوم من عملهم ، وقد ترتب على ذلك كله أنهم فشلوا فشلا ذريعاً فى جميع حركاتهم .

وبداية فإنه لا يمكن النجاح في هذه الدنيا دون السير على طريق سنة الله . وأى مسار آخر لن يصل بالإنسان إلى الهدف الصحيح ، فإذا كان الله قد جعل سر الفلاح والنجاح في الصبر ، فلا يمكن الفلاح والنجاح بالاستعجال والثوب السريع ، وإذا قرر الله الفوز في العمل الدائب المستمر الصامت فلا يمكن الفوز اعتماداً على رنة الخطب والكلمات المطنطنة ، وإذا عين الله فترة خاصة للجهود فلا يمكن الوصول إلى المراد قبل إكمال هذه الفترة . وإذا أقر الله مبدأ التدرج لعمل بالغ الأهمية ، فلا يكون بلوغه بقفزة كبيرة ، وإذا شاء الله أن لا يتخذ المرء خطوة كبيرة بدون التمكن الذاتي ، فلا يمكن إحراز الهدف باتخاذ خطوات عاجلة طائشة ، وإذا أراد الله حل مسائل هذه الدنيا عن طريق العمل الجدى ، فلا يكون تسويتها بالهباب العواطف ، وإن فيض الله سر الإصلاح في بناء الشخصية وتقويم السلوك ، فلا يمكن إذن البلوغ إلى هدف الإصلاح بإحداث الثورات والانقلابات الاجتماعية .

هذه هي سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

الإسلام والعلم الحديث

ذات يوم قابلني شخص حصل على شهادة عالية في العلوم وكان له إلمام بالدراسات الدينية والتاريخ أيضاً ، ولم يكن يعترف بالدين وبوجود خالق هذا الكون ، وأثناء الحوار سألتني قائلاً : إذا حذف الإسلام من التاريخ الإنساني فهل ينقص شيء ؟ .. فقلت : « سينقصه ما كان ينقصه قبل عهده بالإسلام » .

لقد عمر الإنسان هذه الأرض منذ آلاف السنين غير أن التاريخ المعلوم يشهد أن الإنسان لم يبلغ ما نعتيه بكلمة « العلوم الطبيعية » إلا بعد ظهور الإسلام ، فما هو تحليل هذه الظاهرة ؟ .

إن التحليل بسيط جداً ، وهو أن الشرك كان غالباً على الإنسان في كل زمان قبل الإسلام ، وكان أكبر عائق في سبيل استيطان عالم الطبيعة وبهذا الشرك أصبحت المظاهر الطبيعية آلهة تعبد ، وما كان للعلوم الطبيعية أن تبرز إلى حيز الوجود وتبلغ المستوى الذي بلغته في العصر الحديث إلا باعتبار هذه المظاهر الطبيعية أولاً مواضيع تدرس وتبحث فتسخر لخدمة الإنسان ، فالإنسان المشرك يعتبر القمر معبوداً .. فكيف يجترأ على أن يطأه بقدميه ؟ والإنسان المشرك ينظر إلى السيول على أنها قوة تستحق العبادة فكيف له أن يفكر في توليد الكهرباء منها بعد تسخيرها ؟ هذا هو الإسلام الذي أخضع الشرك وأعطى فكرة التوحيد مكانة أسنى لأول مرة في التاريخ الذي يعرفه الإنسان .

وقد نشر الإسلام الفكرة القائلة بأن الله واحد لا شريك له ، فكل شيء ما عداه مخلوق وحادث ، وبذلك مهد الإسلام طريق (تقصى

الحقائق (وإدراك عالم الطبيعة ، وكشف الغطاء عن أسرارهِ ، وبالتالي انتصر الإنسان على الطبيعة ، وكانت هذه نقطة انطلاق لجميع التطورات والاختراعات والصور المختلفة للتقدم ، فمما لا شك فيه أن التخلف الحضارى والتردى العلمى كانا من نتاج الشرك ، ولولا التوحيد لما بلغت الحضارة ما بلغتْهُ الآن فى العلوم والتكنولوجيا ، فالفضل عائد إلى التوحيد بصفة غير مباشرة ، هذا .. ومن البدهى أن الإسلام لا يستهدف أساساً تزويد الناس بالعلوم الطبيعية ، غير أن الإنسان سار على درب العلوم بظهور الإسلام ، وقبل ظهور الإسلام لم يكن قد سار قط على هذا الدرب .

وقد اعترف المؤرخ البريطانى الشهير أرنولد توينبى (١٨٨٩ - ١٩٧٥) بهذا وسجله بوضوح فى كتابه « موجز دراسة التاريخ » ، فقال :

« .. إن إحدى نتائج الثورة الفكرية التى برزت إلى حيز الوجود على أساس (التوحيد) أن الإنسان بدأ يلقي نظرة على عالم الطبيعة على أساس أنها مخلوق ، وأن له حق أن يعلمه ويسخره ، وانطلقت هذه الفكرة فى العهد الأموى ؟ (٦٦١ - ٧٥٠) - أولا - فى دمشق ، ولقد كانت الكيمياء عند حكماء اليونان عملية استخراج الذهب من الفضة وهى عملية لا أساس لها بينما كان « خالد بن يزيد بن معاوية » أول شخص نمى علم الكيمياء كعلم طبيعى وتطور هذا العلم فى بغداد أكثر فأكثر فى العهد العباسى ، وانتشر فى أسبانيا وصقلية ، وفاق المسلمون فى هذا العهد جميع الشعوب والأمم فى التقدم العلمى والحضارى .

ويصف المؤرخون الغربيون هذا العهد بأنه كان من القرون المظلمة ولكن هذا العهد كان مظلماً بالنسبة لأوروبا فقط لا للمسلمين ... » .
هذا ما قاله أرنولد توينبى ..

ويقول صاحب مقال « العصور الوسطى » المنشور في دائرة المعارف العالمية : (لا ينطبق مصطلح القرون المظلمة أو العصور الوسطى على الحضارة الإسلامية الرائعة التي كانت منتشرة حينذاك في شمال إفريقيا وإسبانيا) ولكن .. كيف كان الشرك يعوق سبيل البحث العلمي ؟

إننا نضرب مثلاً توضيحياً هنا .. لقد قدمت نظريتان في اليونان القديم عن دوران الأرض والشمس ، إحداهما كانت نظرية « أرسطاركس » والتي تفترض دوران الأرض حول الشمس ، والأخرى كانت « نظرية ثالي » والتي تقول إن الشمس تدور حول الأرض ، وكانت الأرض بناء على النظرية الأولى مُدَوَّرَة ، وبناء على النظرية الثانية بيضاوية . . ولما اعتنق قسطنطين (٢٧٢ — ٣٧٣ م) المسيحية ، وانتشرت المسيحية بواسطته وحظيت بالقوة الغالبة ، احتضنت المسيحية « نظرية ثالي » وأولتها بالرعاية والإشراف ، بينما حاول الكهنة إخفاء النظرية الأخرى ، والسبب في ذلك أن المسيحية كانت قد جعلت من المسيح إلهاً ، ولد ونشأ على الكرة الأرضية فبتلك العقيدة أصبحت الأرض مسقط رأس (الآلهة) وأصبحت الأرض بالتالي (مقدسة) وبأنى لها أن تكون تابعة لكوكب آخر ؟؟ ..

وقد نتج عن ذلك أن البحوث العلمية أصيبت بالركود والجمود (راجع تفاصيل هذا الصراع بين العلم ودين الشرك في كتاب « دريبر » ١٨١١ — ١٨٨٣ م « الصراع بين العلم والدين ») .

لقد أنشئ بيت الحكمة في عهد الخليفة المأمون العباسي (٧٨٦ — ٨٣٣ م) وقام بترجمة كلتا النظريتين في عهده ، وقد فحص المسلمون هاتين النظريتين دون أى ضغط عقائدى ، فرأوا أن النظرية الأولى هي أقرب إلى الحقيقة ، وكان الخليفة المأمون العباسي نفسه عالماً كبيراً فشر

بخطورة هذا الإثبات ، فأمر علماء الفلك والجغرافية أن يبحثوا عن محيط كرة الأرض ، مفترضين أن الأرض مُدَوَّرَةٌ ، ثم قدروا قطر الأرض بكامله بمساحة « درجة أرضية واحدة » في ميدان فسيح ، ولم تكن حينذاك في حيازة المسلمين إلا آلات بسيطة من الأصطرلابات والساعة الشمسية لتقدير الزوايا .

ولقد انتخب لذلك ميدان مسطح « بسنجار » وبدأت عملية المساحة الميدانية بإقامة زاوية على ارتفاع القطب الشمالى .. وبالمضى قدماً إلى الشمال بمسافة ٥٦ ميل زاد الطول درجة واحدة في زاوية ارتفاع القطب الشمالى ومن ثم علم أن مسافة درجة من سطح الأرض تبلغ ٢ و ٥٦ ميلاً ، فلا بد أن يكون قطر الأرض (عشرين ألف ميل) ، وأعيدت هذه التجارب في مختلف الأماكن فلم تسفر إلا عن نتيجة مماثلة ..

والعجيب أن هذه المسافة كانت أقرب إلى الصحة بدرجة تحار فيها الألباب ، لأن المساحة الصحيحة في هذا العصر — مع كل التقدم في الآلات — تقول إن قطر الأرض على خط الاستواء يبلغ ٢٠ ألف ميل (راجع : تفاصيل التقدم العلمى للمسلمين في كتاب « تاريخ العرب » صفحة ٣٧٥ لمؤلفه « فيليب حتى ») .

انفصال العالم عن العالم الإسلامى

كان المسلمون يسايرون موكب العالم ويحملون رايته حتى انقرض نظام الخلافة العربية بسبب خلافات سرت في المجتمع الإسلامى ، فحمل راية الإسلام الأتراك العثمانيون . فانتقل مركز ثقل القوة السياسية الإسلامية في القرن السادس عشر الميلادى من العرب إلى تركيا . فكان ذلك حدثاً غير مجرى التاريخ . وحول الأحداث إلى نهج جديد .

ومن المعروف أن التاريخ حافل بالأحداث العجيبة ، فقد يحدث أن يقوم شخص بإسداء خدمة مفيدة من ناحية ، ويقدم مصيبة من ناحية أخرى في الوقت نفسه . . ومثال هذا النموذج الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك الذي يرجع إليه الفضل في إضافة خليفة راشد إلى سلسلة الخلفاء الراشدين وهو (عمر بن عبد العزيز) ، لكن التاريخ يسجل في تراجمة هذا الخليفة أنه شل قوة القائدين الكبيرين في الجيش الإسلامي في عهده ، فبذلك توقف السيل الحارف الإسلامي في قارتي آسيا وإفريقيا . وبالنسبة للأتراك العثمانيين فلا شك أنهم حولوا راية الإسلام التي كانت قد أشرقت على السقوط ، وجعلوا من أنفسهم حصناً منيعاً للإسلام ضد القوى المسيحية الأوروبية ، ففى هذا الإطار تستحق خدماتهم أن تذكر وتشكر ، ولكن هؤلاء الأتراك هم الذين أصبحوا سبباً في توقف البحوث العلمية في العالم الإسلامي . وفي انتقال المركز العلمي من العرب إلى أوروبا . لقد كان الأتراك بوسائل وشجعاناً وأصحاب عزية ، ولكن كانت تنقصهم الميزة العلمية ، فلم يدركوا أهمية الدراسات والأبحاث العلمية ، بل كانوا يحسبونها خطراً عليهم . فيظنون أن انتشار العلم سيقطع من ولاء الشعب ، فيصعب كبح جماحه ، ولذلك أصبحوا يعادون الأعمال العلمية ، ومع تغير المركز السياسي العربي نزح علماء كثيرون من بغداد إلى الأستانة عاصمة الدولة العثمانية ، وبينما كان الخلفاء العباسيون يضعون العلماء موضع الإجلال والتقدير ويغدقون عليهم الأموال — كان الأتراك على العكس — ينكروهم ويمسكرون عملهم ويحسبونهم وبالاً عليهم . فنبطوا همهم ، وضيقوا الحناق عليهم حتى أظلمت عليهم الدنيا ، ولم يجدوا بريق الأمل في مستقبل كريم . فنزحوا إلى الديار الفرنسية والإيطالية ، ومن ثم انتقلت الأعمال العلمية من عالم الإسلام إلى الغرب (راجع تفاصيل هذه القصة المؤلمة في كتاب محمد كرد على « تاريخ الحضارة العربية ») .

وقد استقبل الغرب هؤلاء العلماء المسلمين برحابة صدر ، فبعد أن فشل الأوروبيون فشلاً ذريعاً في الحروب الصليبية بسبب طول باع المسلمين في العلوم ، إذ كانت الجيوش الصليبية في هذه الحروب أول الأمر تستعمل النار اليونانية « Greek Fire » ومنى المسلمون منها بخسائر فادحة في الأرواح والأموال ، وكانت هذه النار اليونانية مثل (القطار) التي تملأ بالمواد الكيماوية المتفجرة .. لكن العلماء المسلمين اخترعوا سلاحاً آخر استعمل فيه « الزيت المعدنى » فكان أكثر قوة وضراوة من النار اليونانية .

وقد رغب المسيحيون أشد الرغبة في إزالة تخلفهم العلمى ، حتى أصبح ذلك شغلهم الشاغل ، فلما أقبل العلماء المسلمون إليهم استقبلوهم ببالغ الخفاوة وأجنسهم كل الإجلال والإكبار ، كأنهم يرتقبون هذه الفرصة ، فعزموا أن لا تفوتهم الفرصة هذه المرة . . فأصبحت أوروبا مركزاً كبيراً للاختبارات والدراسات العلمية . وبلغت النشاطات العلمية درجة تعذر نظيرها قبل ، فبجهود مضيئة جرت في ظرف ثلاثة قرون ظهرت ثورة في أوروبا نسميها بالإحياء العلمى الصناعى (راجع قصة إسهام المسلمين في النهضة الأوربية في كتاب بريفالت « بناء الإنسانية ») .

لقد احتل المسلمون مكانة الأستاذية في العلم حتى القرن السادس عشر ثم أتى عليهم حين من الدهر لم يكونوا إلا متطفلين على مائدة الغرب ، وسبقهم أوروبا بقرون في ميدان التقدم والنهضة العلمية ، فأفلتت قيادة العلم والعالم من أيدي المسلمين ولكن حتى بعد هذه السقطلة . كان عليهم أن يعودوا إلى حضارتهم العلمية ليستعيدوا مجدهم التليد وينتفعوا مما أنجزت أوروبا من إنجازات علمية نادرة . عملاً بهذا الحديث العريق : « الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق الناس بها » .. وحتى يبنوا قصر العظمة من جديد على أنقاض (العظمة الأولى) . . ولكنهم لم يفعلوا ذلك لسببين :

أولاً : ابتعد المسلمون عن العلوم الطبيعية لعدة قرون ، ثم عادت هذه العلوم إلى المسلمين بواسطة أوروبا في صور استعمارية مروعة ، من استبداد إلى جوع ، إلى استيلاء سيامى على بلادهم ، وقد تقدم بهذه العلوم إليهم أناس انتزعوا الحكم والسلطة من أيديهم ، وأساءوا إلى حضارتهم ودينهم فلم يستطع المسلمون أن يعرفوا الفارق بين العلوم الغربية والعلوم السياسية ، فحسبوا أنه لا فرق بينهما ، فناصروا العلوم الغربية العداء ، كما ناصروا الأمم الغربية العداء أيضاً ، فبعد أن أقبلت الأمم الأخرى على هذه العلوم أبعد المسلمون عنها ، وفروا منها فكانت النتيجة أن أصبح المسلمون متأخرين بقرن واحد على الأقل عن الأمم الأخرى ، فأنى لهم أن يقودوها في العلم ...

ثانياً : ومما زاد الطين بلة أن الأشخاص الذين أفاقوا بعد سبات طويل ، ودعوا المسلمين إلى الحصول على العلم لم يكونوا أكفاء ، بل لأنهم حاولوا إنجاز هذا العمل الصحيح بطريقة خاطئة ، فلم ينالوا قبولاً يستحقونه في الحقيقة بين أوساط المسلمين . فمثلاً للتأكيد على العلم الجديد قالوا إن كلمة العلم أينا ذكرت في القرآن إنما تعني « العلوم الطبيعية » التي يقوم الأساتذة بتدريسها في الكليات والجامعات ، وكان هذا برهاناً خاطئاً استعمل لمقصد صحيح ، إذ أن الواقع هو أن العلم الذي ذكرت فضيلته في القرآن والحديث إنما هو « علم الدين » لا العلوم الطبيعية . لكن - مع ذلك - يتحتم على المسلمين إحراز سبق في هذه العلوم الطبيعية ، ولكن أهميتها تثبت من (آية القوة) لا من (آية العلم) ، فلقد ورد في القرآن الأمر بالحصول على هذه القوة لإرهاب أعداء الله وأعداء المسلمين وقد احتلت العلوم الطبيعية في العصر الحديث مكان هذه القوة ، فيتحتم على المسلمين إحراز هذه العلوم أيضاً ، ولا يمكن للمسلمين أن يكونوا

(م ٧ - قضية البعث)

قوة مرهبة في هذا العصر دون الاضطلاع بهذه العلوم وعلو كعبهم فيها ،
فإن آية القوة المرهبة : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل
ترهبون به عدو الله وعدوكم » إنما تنطوي على أمر تعلم هذه العلوم كوسيلة
لتقوية الإسلام والمسلمين في هذا الزمان .

وبسبب هذه الخطيئة التي اقترفها المصلحون من المسلمين في حقل
التعليم - أصبحت ظوائف من الأمة تحاربهم !!

ولقد ورد في الحديث (طلب العلم فريضة على كل مسلم) واتفق
العلماء على أن معنى مثل هذه النصوص هو علم الكتاب والسنة ولكن
هؤلاء المصلحين طبقوا هذه النصوص على العلوم العصرية فخشي هؤلاء
العلماء على الإسلام ، فرأوا في مثل هذه التصريحات تحريفاً في الدين
فخالفوا العلوم العصرية . وفي الواقع إن المصلحين في مجال التعليم لم يكونوا
على جادة الصواب ، وقد أخطأ علماء الدين في أنهم لم يفرقوا بين صحة
المقصد وصحة الاستدلال ، ولو تفتنوا إلى ذلك لقاموا بإصلاح الاستدلال
ولم يخالفوا المقصد .

موقف الإسلام من العلوم

يعلق الإسلام بالغ الأهمية على العلوم الطبيعية لأسباب كثيرة نذكر
بعضها فيما يلي :

١ - ينطوي مفهوم العلم على دراسة حقائق الكون ببساطة وهذه هي
السمة التي وردت في القرآن عن أهل الإيمان . : لأنهم « يتفكرون في خلق
السموات والأرض » فرجل العلم يقوم بالعمل نفسه الذي يقوم به رجل
الإيمان . ولكن مع فرق واحد هو أن العالم يقتصر في بحثه على البحث
العلمي ، بينما يهدف المؤمن بهذا العمل إلى العبرة : وبالتالي يطعن العالم

إلى الكم الهائل في المعلومات بنما يطمئن المؤمن إلى ما يطمئن إليه قلبه وضميره وعقله المؤمن .

وقد يؤدي هذا الاختلاف العقلي إلى الاختلاف في أسلوب الدراسة وطريقة البحث فيقتصر العالم الطبيعي على خواص الأشياء ويترك أهمية الأشياء ويفضل مظهرها النفعي عن جوهرها ، وهو - أي العالم الطبيعي - يفعل ذلك بما أنه يريد أن يرى الكون بوحى من عقله فقط ، ومعلوم أن العقل الإنسانى لا يستطيع أن يرى رؤية مشاهدة قطعية إلا الأشياء التى تختبر وتلمس ، وبالتالي ففى لغة العقل لا محيص عن الاكتفاء بالجوانب القابلة للاختبار من الكون .

غير أن المؤمن لا يستضىء بنور العقل فقط ، بل يسترشد بتعاليم النبوة أيضاً ، فيجتاز خواص الأشياء إلى حقائق الأشياء وينتقل بنظره من المخلوق إلى الخالق ، فيرى وكأن الكون كله مظهر لصفات الله ، فما إن يرى الكون حتى يجد خالقه وصانعه الذى آمن به بواسطة رسوله الموحى لآيه هـ

لقد استدل القرآن بالأحداث الكونية لإثبات رسالته ، وإن ما جاء فى القرآن داخلاً فى النظر العلمى يصبح للمؤمن براهين يقينية ، وبهذا يصبح العلم كله « علم الكلام القرآنى » لأن العلم ليست من صناعة بعض العلماء ، بل هى عبارة عن (البحث عن القوانين الموجودة فى الكون) فكل ما يعثر عليه العلم إنما هو نفحة من أعمال خالق هذا الكون . .

والعالم الطبيعى لا يستهدف العلم إلا للعلم أو لتعمير الدنيا ولكن العالم المؤمن يستهدف العلم لجعل منه سلاحاً يتسلح به ضد أعداء الدين الحق ، ولينفذ به إلى القلوب ترغياً فى دعوة الإسلام .

٢- والأهمية الثالثة للعلوم من المنظور الإسلامى هى الأهمية التى ألحنا

إليها : ونعنى بها (القوة) التى لا بد منها للمسلمين فى جهادهم أعداءهم . .

والعلم هو (القوة) في العصر الحديث ، فيلزم الحصول على قوة العلوم للنهوض بالإسلام والمسلمين ، وذلك يتوقف على تقدم المسلمين في تحصيل هذه العلوم المادية التي يجب أن يمهروا فيها ويحتلوا درجة القيادة فيها .

إن النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين يشهدان بوجود حركات استقلال سياسية في كافة أقطار العالم الإسلامي ، وقد رأى زعماء هذه الحركات أن القوة والسيطرة والرفعة ترادف التخلص من براثن الاستعمار ، وكانوا يتصورون أن الاستقلال السياسي هو بنفسه (ازدهار الإسلام) ونهضته ، ولكننا اليوم وبعدما تحررت البلدان الإسلامية عبر تضحيات كبيرة فلا تزال هذه البلدان تركم أمام البلدان الأكثر تقدماً في العلوم والتكنولوجيا ، وأن استقلالها السياسي لم يرتفع بها إلى مكانة المجد المرتقب . . والسبب هو أن هذه البلدان الإسلامية تحتاج إلى هذه الدول غير الإسلامية في كل شيء من الساعة إلى الأسلحة والمعدات الحربية .

ويتجلى لنا من ذلك أن كل شيء في هذا العصر يتعلق بالعلوم التكنولوجية والأمم التي تتخلف في هذا المجال ، لن تستطيع أن تحتل مكانة مرموقة في هذا العالم .

الكلمة الأخيرة

عند عمر شخص بشارع (البرلمان) في (نيودلهي) فسوف يرى عمارة عجيبة تدعى « بجنتر سنتر » لقد كانت هذه العمارة مرصداً بناه أمير ولاية (جى فور) في النصف الأول من القرن الثاني عشر إذ كانت له ميول كثيرة لعلم الفلك ، وبالتالي بنى المراصد الكثيرة في مختلف المدن في البلاد .

لقد كان العلماء في قديم الزمان يقدرّون سير القمر والكواكب ،
ويقدرّون المسافة ما بين الأرض والنجوم ، ويتنبأون بحالة انطقس هذه
المراصد الجوية . . . ويقدرّون الوقت بالقمر في الليل وبالشمس في النهار
ذلك أن نوافذ العمارة وثقوبها كلها كانت تكون تقويماً للسنة كلها .

إن جميع الأعمال العلمية البناءة في القرون الوسطى كانت نقلاً -
في الأصل - عن علماء المسلمين ، فهذا المرصد الذي بناه الأمير جى سنكو
لم يكن إلا نقلاً عن مرصد (العهد العباسي) وقد تم بناؤه بنفس النهج
الذي اتخذ في تعمير مرصد هارون الرشيد قبل ألف سنة .

لقد احتل المسلمون مكانة الإمامة في العالم بالأمس القريب ، والدنيا
كلها كانت تحذو حذوهم وتقتفي آثارهم ، ثم أفلتت هذه الإمامة من
أيديهم على غفلة منهم .

لقد كان من الواجب على أي شخص ينشئ مرصداً قبل ثلاثة
قرون أن يتبع المنهج الذي وضعه المسلمون في بغداد ، ولكن الآن عندما
يريد أحد أن ينشئ مرصداً فإنه سوف يستورد التصميمات كلها من الغرب .

هذه هي (المحطة) التي انتهت إليها رحلة حضارة المسلمين ..

وهذه هي النقطة التي يمكن أن تكون نقطة انطلاق مجدهم من جديد .

علم الكلام الجديد

تتلخص حقيقة علم الكلام الجديد في أنه استجلاء حقائق الدين بالأدلة التي تطمئن الذهن الجديد والعقاية الجديدة ، وتوصل التعاليم الإسلامية بأحدث أساليب الاستدلال الملائمة للعقل الجديد .

فما هو العقل الجديد .. يا ترى ؟ .

إن مدلول هذه الكلمة مدلول مرادف لكلمة العقل العلمي ، أو العقلية العلمية ..

والعقلية العلمية عقلية تهتم بالحقائق ، فقد أحدثت العلوم ثورة فكرية في التاريخ الإنساني ، هي تتمثل في تقديم الكلام على أساس التجربة والملاحظة لا على أساس التخمينات أو القياسات المنطقية ، فإن الثورة التي حدثت في العصر الحديث تقوم على دراسة الحقائق الطبيعية ، وكل شيء مخترع في هذا العصر سواء أكان دراجة أم طائرة ، مصباحاً أم مصنعاً إنما هو عمل يتماشى مع الحقائق الطبيعية .. هذه هي الثورة التي قادت كل الثورات العقلية في هذا الزمان ، وما من جانب من جوانب الحياة إلا وتأثر بهذه الثورة ، حتى تغير أسلوب التحليل في هذا العصر .. لقد كان الإنسان يستنفذ الجهود عبر القرون ، لتحويل الحديد إلى الذهب بعمليات يحيط بها الغموض والسر .. ولكنه تحول الآن الحديد إلى الماكينات بعد الوصول إلى أسرار الطبيعة ، وهذه الماكينات أغلى وأثمن من الذهب . وفي هذا الوضع المتغير ، من الطبيعي أن يولي إنسان اليوم أهميته أكثر وزناً لأمر ثبت على أساس الحقائق الطبيعية .. لقد سار إنسان اليوم في مدارج الرقي على أساس الحقائق ، فإنسان اليوم لا يصنع يقينه وطريقه إلا على أمور تثبت بالحقائق .

وأضرب لك مثلاً بسيطاً لتعرف الفرق بين ما هو من الفكر القديم أو الجديد ، لأنه قبل خمسين سنة كان الأطباء يعجبون بكلمات مثل : «وصفة طبية سنية توارثتها الأسرة كائناً عن كابر» ، و«دواء ملكي خاص» و«علاج عريق في القدم» فإذا ما استعملت هذه الكلمات بصدق أى دواء للإنسان ، فمدلولها كان «الخواص العجيبة المدهشة» ولكن هذه الكلمات فقدت اليوم كل قيمة ، ولا ينطق (دكتور) اليوم بمصطلح «وصفة قديمة» في إثبات أية أهمية لدواء أو لمعجون للأسنان ، بل سيقول «أعد الدواء بطريقة علمية» بمعنى أن فائدته قد ثبتت بتجارب ومشاهدات معلومة .. ويمكن لكل أحد أن يصدق نتائج صحة هذه التجارب بالقيام بها والعمل وفقها ، بينما كانت كلمة «العلاج الخاص القديم» تعني أن الخواص الطبية هي ما وراء الإدراك ، وأن العلاقة بين الداء والدواء لم تحدد بالتجربة وأهمية هذا الدواء عرفت بالتوارث فقط ، لكن الإنسان العصري لا يمجبه إلا المسحوق الذي صنع وأعد بطريقة علمية يخضع لتتابع الحقائق الطبيعية فكذلك لا يقبل الإنسان العصري فكراً إلا إذا عرف أنه يطابق الحقائق الطبيعية ، لقد كان الفكر الإنساني يقوم قبل الثورة العلمية على القياسات الفلسفية ولكن الثورة العلمية وضعت الفكر الإنساني على أساس الحقائق المعلومة . وهنا تبدأ المفجوة بين علم الكلام القديم وعلم الكلام الجديد ، وتصل إلى حد القطيعة ، فقد كان علم الكلام القديم يبنى على نمط الاستدلال الفلسفي ، بينما يبنى علم الكلام الجديد على نمط الاستدلال الطبيعي ، وكانت الحقيقة تبرهن سابقاً لمنطق القياس ، ولكنها تبرهن في عصرنا هذا بالشهادات الواقعية .

وفي ضوء هذا الشرح الوجيز لعقولة الجديدة أريد أن أقول : إن نمط الاستدلال الجديد - حتى ولو كان جديداً بالنسبة للأديان والأمم الأخرى -

فإنه ليس بجديد بالنسبة للإسلام . . فلذا أخذنا بعين الاعتبار هذه الحقيقة فستجلى لنا أن نمط الاستدلال القرآني إنما هو نفس النمط الذي يعبر عن الاستدلال بالحقائق الطبيعية ، فلا نكون مبالغين إذا قلنا : إن علم الكلام الجديد إنما هو علم الكلام القرآني ، وليس علم الكلام الجديد إلا العودة إلى الكلاميات القرآنية .

يذكر لنا القرآن أنه لما دعا إبراهيم عليه السلام قومه المشركين إلى التوحيد قبل أربعة آلاف سنة أقام الدليل على دعوته بمشاهدات الشمس والقمر والنجوم ، وقد ذكرت هذه القصة في سورة الأنعام ، حيث نقرأ هذه الكلمات : « وتلك خمجتنا آتيناهم إبراهيم على قومه » فكلمة « حجتنا » تشير إلى أن نمط الكلام الذي اتخذ إبراهيم عليه السلام كان نمط الكلام الإلهي ، ويتجلى من هذا أن الحجة الإلهية أو الاستدلال الإلهي هو أن يستدل من الحقائق المعلومة المشهودة بهذا الكون .

ونمضي في هذا السياق فنقول إن التعليم الذي أعطاه الله في كتابه بصورة كلامية جمل الكون بأسره دليلاً عملياً لتأييده وتأكيد ، وأي دليل يكون أقوى من الدليل الذي أخذه الله لنفسه ، ولذلك جاء في القرآن في جانب « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق » (الجاثية : ٢٩) ، وجاء عن الكون (السماء والأرض) في جانب آخر « وما خلقناهما إلا بالحق » (الدخان : ٣٩) .

ومن هذا يبدو لنا أن القرآن والكون كليهما إظهار للمشيئة الربانية وهو إظهار بصورة (كلامية) في مكان ، وإظهار بصورة (عملية) في مكان آخر .

ونحن نعلم من القرآن أن هذا هو الطريق الذي اختاره الله لجميع رسله

فهذا نوح عليه السلام الذى عاش فى سالف العصر وقديم الزمان ومع ذلك فأسلوب استدلاله هو نفس الاستدلال المبني على البراهين الحقيقية أو الطبيعية ففي سورة نوح ، يقول نوح عليه السلام : « .. فقللت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مدراراً مالكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً . ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً . وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم لإخراجاً . والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً » (نوح)

وانظر بعد هذا فى أسلوب الدعوة القرآنى الذى نسميه الأسلوب المعتمد على الحقائق الطبيعية ، يقول القرآن : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت » (الغاشية) .

إن هذا هو الاستدلال الإسلامى الأصيل الذى تبناه سائر الرسل والأنبياء والذى نجده بكثرة فى القرآن .

ولكن لما بدأ تدوين العلوم الإسلامية فى القرن الثانى الهجرى أيام الخلافة العباسية ، تم ترتيب علم الكلام الإسلامى على نسق من المنطق والفلسفة القديمتين ، ثم أدخل علم الكلام الإسلامى بمنهجه هذا فى المناهج الدراسية زمان الإمام الغزالى ، وجرت الأمور التعليمية على هذا النحو قروناً طويلة دون انقطاع ، حتى غدا علم الكلام مرادفاً لعلم المنطق . ولقد كان ذلك انحرافاً عن منهج القرآن ، حين وضع علم الكلام أبنية الاستدلال الإسلامى على أساس المنطق القياسى ، بينما وضع القرآن أبنية الاستدلال الإسلامى على أساس الشواهد الطبيعية ، ولقد سيطرت الكلاميات المنطقية على عقول الناس حتى أضحت شغلهم الشاغل مدة ألف سنة .

غير أن الأوضاع الخارجية في هذا العصر الحديث ترغمنا على أن نتركها ونتخلى عنها ونرجع إلى أسلوب القرآن الطبيعي القويم ، ولئن كان علم الكلام قد يتمتع بقدر قليل من الوزن العامى قبل الثورة العلمية فإنه قد فقد هذا الوزن اليوم ، وإن أفادت الدعوة منه ، تلك التى لم تكن توجد فيه حتى في مرحلته الأولى قد ابتعدت عنه أقصى الابتعاد في عصرنا الحديث .

وإن علم الكلام الجديد ليس إلا علم الكلام القرآنى ، وفى الإمكان التعرف على علم الكلام القرآنى جملة وتفصيلاً ، بتتبع آيات الكتاب ، وسوف نذكر فيما يلى بعض الجوانب المستقاة من (الكلاميات القرآنية) وهى تلك الجوانب التى يعتمد عليها فى فهم علم الكلام القرآنى :

أولاً : لإدراك أول مبادئ الكلاميات القرآنية يجب علينا أن نتأمل هذه الآية : « يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً »

فثمة سائل سأل ، وينتظر الجواب ، لكنه لم يرد عليه - وفوق ذلك نرى تثبيط همته حتى لا يثير مثل هذه الأسئلة . وقد علمنا أنه ثمة أسئلة توجد أجوبتها الحقيقية خارج حدود إدراك الإنسان ، فلا يستطيع الإنسان أن يفهمها كما لا يستطيع الجنين أن يفهم الدنيا خارج رحم أمه ، وإذا رأيت شخصاً يتورط فى حمأة مثل هذه الأسئلة فأحسن إليه وانصره بكفه عن إثارة هذه الأسئلة ، وعلى العكس من ذلك إذا أراد شخص أن يرد على السؤال متمادياً فى الظلمات فإنه سيصر نفسه ويضل غيره .

ذات يوم قابلنى شخص وقال : إن سؤالاً يحيرنى منذ مدة طويلة وإلى أطلب إليك الإجابة عنه ، ثم قال : إن الحديث النبوى صريح فى أن الإنسان ينال جزاء عمله ثواباً أو عقاباً فور وفاته ، فرجل يتوفى بعد

قضاء ٦٠ سنة من حياته (اليوم) .. ورجل توفى قبل عشرة آلاف سنة بعد أن بلغ من عمره ٦٠ سنة ، فإذا كان نصيب كل واحد منهما نار الجحيم فمعنى ذلك أن شخصاً نال عقاباً على اقتراف ذنب واحد مدة عشرة آلاف سنة أكثر مما لقي الرجل الذى عمل نفس الذنب ، ومات حديثاً . . وإذا كان نصيب كل واحد منهما الجنة فإن واحداً منهما سيتمتع بنعيم الجنة عشرة آلاف سنة ، أكثر من نصيب الرجل الآخر ، فلإجابة عن هذه المسألة - والكلام لا زال للسائل - كان على الله أن يخلق جميع الناس فى آن واحد ، ثم يتوفاهم فى آن واحد لينالوا العقاب أو الثواب سواء بسواء .

وللتعليق على مثل هذه الأسئلة نقول : إن جميع مثل هذه الأسئلة ناجمة عن سوء الفكر وفساد العقل ، فإننا نحيا حياتنا فى عالم محدود ، ولا نتجاوز حدود الزمان والمكان فى تفكيرنا ، فليس بإمكاننا الإحاطة بجميع الحقائق عن الآخرة التى تتعالى عن حدود الزمان والمكان ، ونحن لا نستطيع الحصول على العلم الكافى عن الآخرة ، اللهم إلا إجمالاً ، ولا بد لنا أن نقتصر على هذا العلم الإجمالى ، وأما الحرص على الزيادة فى هذا العلم فهو طريق محفوفة بالأخطار .

لقد جاء فى القرآن أن الآيات تنقسم إلى قسمين - محكمات ومتشابهات أما المحكمات فتتصل بدنياً بالمعلومة ونستطيع فهم مدلولاتها مثل « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » (المائدة : ٣٨) . . أما المتشابهات فهى تخص بأمور الغيب ، فقد بين الله هذه الأمور بأسلوب رمزى مثل :

« ثم استوى على العرش » (الأعراف : ٥٤) وإن السعى لفهم مدلولات أو مفاهيم الآيات « المحكمات » أمر مفيد ، ولكن السعى لتعيين مدلولات « المتشابهات » سيعود بالضرر والخسران على المسلمين .

إن هذا التقسيم للعلم (المحكمات والمتشابهات) يتلاءم مع الطبيعة البشرية ويتجلى لنا من المعطيات العلمية الحديثة ، إن هذا التقسيم صحيح ، وإن علم الإنسان محدود . ولقد أصبح مما لا شك فيه أن أحداً من العلماء في عصر العلم الحديث لا يجادل في أن الإنسان لا يتأقن له إلا إحراز علم محدود جزئى وأن العلم (الكلى) فوق قدرته ، ويتجلى من هذا أن أول مبادئ (الكلاميات القرآنية) يقوم على أساس علمى ... إنه الأساس الذى اعترفت به العقلية الجديدة ببحوثها وتنقيباتها ..

ثانياً : إن المبدأ الثانى لعلم الكلام القرآنى هو الاستدلال على الحقائق بالطرق الطبيعية ، وكما ورد في القرآن : « سنبينهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » (فصلت : ٥٣) ونذكر بعض الأمثلة في هذا الخصوص :

(أ) لقد قام القرآن بالدعوة إلى الإيمان بالله الذى خلق هذا الكون .. ولكن ما هى الأدلة على هذه الدعوة ؟ .. لقد أقام المتكلمون القدامى أدلة قياسية تحت ضغط عقليتهم الفلسفية ، ولكن القرآن يقيم الأدلة المشاهدة ، فيقول : إن هذا الكون الواسع الذى ترونه رأى العين ولا تنكرونه إنما هو في حد ذاته دليل على خالق الكون :

« أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففلقناهما . وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون » (الأنبياء : ٣) ..

ففى هذه الآية نرى بوضوح إشارة إلى حادث كوفى يسمى بنظرية « Big Bang » (فى العصر الحديث) ، فبما أن الله مطلع على الإنسان منذ ميلاده إلى وفاته وعليم به .. وهو لهذا يخاطب الناس المنكرين بأسلوب غير زمانى ، فيقول لهم : إن أدلة وحدانية الله موجودة وكاثرة في نفس الكون الذى تشاهدونه بعيونكم فكيف تكفرون به ؟؟ ..

في عام ١٩١٣ كشف العالم الفلكي الأمريكي « فستوملفن سلفر » Vesto Melvin Slipher « في مرصد « لوفيل » خلال بحثه - كشف أن ثمة مجرات تندفع إلى اتجاه الخارج بسرعة فائقة ، ثم كشف العالمان (أدون هبل) « Edwin Hubble » وملتون هوماسون « Milton Hamason » - بعد مشاهدة من منظار يصل لمائة بوصة - أن سائر المجرات تسير بسرعة إلى اتجاه الخارج . . وقد جمع عالم الفلك الهولندي (وليم دي ستار) شواهد في تأكيد هذه النظرية . وفي عام ١٩٦٥ كشف أرنو بنزياس « Arno Penziss » وروبرت ويلسون « Robert Wilson » عن بعض الأشعة الناتجة عن الانفجار الكوني البدائي ..

وبعد هذه البحوث العلمية المتتالية راحت هذه النظرية تعتبر حقيقة ثابتة ! إن هذه النظرية تفيدنا أن العالم ليس أزلياً ، بل إنه بدأ في وقت خاص محدد لا نعرفه ، وتدل هذه النظرية على أننا نعيش في عالم يزيد حجماً باستمرار ، وأن المجرات تندفع إلى اتجاه الخارج بسرعة مذهشة .

ويقول علماء الحساب . إن هذه السرعة الخارجة لو وجهت إلى الداخل فسيصبح هذا الكون (كرة هزيلة) بعد عشرين ألف مليون سنة . وهذه النظرية دليل على وجود الله بالقوانين الطبيعية ، لأن الكرة المادية الجامدة لا يمكن أن تتحرك إلى اتجاه الخارج بصفة منتظمة بدون محرك خارجي .

ونشر العالم الأمريكي روبرت جاسترو « Robert Jastrow » مقالاً في مجلة « Reader's Digest » في أكتوبر سنة ١٩٨٠ ، جعل عنوانه هل اكتشف علماء الفلك وجود الله؟ « Have Astronomers Found god »

ولما كان ثمة علماء قد اعتقدوا بإمكان التخليط العقلي لكل حادث ليظهر كنتيجة لحادث طبيعي آخر وقع في الماضي .. فقد اضطرب هؤلاء العلماء عند ظهور هذا التحقيق ، وشعروا بالهلع والفرع ، إذ أن الاعتراف بصحة هذا التحديق يكون رديفاً لوجود (إرادة الله في الكون) بدلا من سلسلة العلة والمعلول والفعل ورد الفعل ، ولما لم يسعهم إنكار هذه الحقائق والتقليل من أهمية هذا الحدث العظيم ، أطلقوا عليه اسم Big Bang أى (الانفجار العظيم) ، ويعنى ذلك أن العالم أو الكون ، ظهر إلى الوجود (بانفجار صرف) .

وقد سأل عالم أمريكي ملحد من هؤلاء العلماء الذين أزعجهم هذا الكشف العلمى ، فقال لرجل دين : وماذا كان الله يصنع قبل خلقه الأرض والسموات ؟ ...

فأجابه الرجل : إنه كان يعد جحما لأولئك الأشخاص الذين يثرون مثل هذه الأسئلة .

He was Setting hell for People who ask Questions Lik that.

(ب) القرآن يخبرنا أن هذا العالم ليس بعالم نهائى ، بل يعقبه عالم آخر ولو أنه في الغيب لكنه حقيقة واقعة ، وتأكيذاً لهذا القول أقام المتكلمون القدامى أيضاً أدلة منطقية قياسية ، ولكن القرآن يقدم الأدلة على قوله بالعلم التجريبي ، فهو يقول : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » (الذاريات : ٤٩) ، فإذا كان لكل شيء زوجة الذي يستكمل به نفسه فلا بد أن يكون لهذه الدنيا زوج - وزوج هذه الدنيا هي الآخرة .

لقد كان الإنسان يعلم من قديم الزمان بأن للإنسان والحيوان زوجا ، ولكنه لم يكن يعلم حتى عام ١٩٣٨ أن للمادة الجامدة زوجاً أيضاً ،

وفى نفس العام اكتشف عالم من علماء الطبيعيات الرياضية وهو بول ديراك « Paul A. M. Dirac » إمكان وجود ذرة غير مرئية مع ذرة مادية مرئية - واكتشف فى عام ١٩٣٣ العالم أندرسون « K. Anderson » خلال دراسته للأشعة الكونية بوجود ذرة مع الألكترون تتمتع بقوة برقية مضادة وقد سميت هذه الذرة « بالألكترون المضاد » وقد مضى هذا التحقيق حتى علم أن سائر الذرات الكائنة فى الخليقة توجد بشكل أزواج ، « Pain Particels » فهناك جسيمة مضادة للجسيمة ، وذرة مضادة للذرة ، وميتر مضاد للميتر ، وعالم مضاد للعالم ، كما أعلننا «ديراك» فى عام ١٩٣٣ م .

ويرى بعض العلماء فى العصر الحديث أن للعالم المضاد وجوداً متوازياً لعالمنا ومنفصلاً عنا ، وقد جعلت هذه الدنيا بصورة الماستر ، وبموجب قوانين الطبيعة لا بد أن يكون هناك عالم آخر مصنوع من الماستر المضاد . ويقاس عليه بأنه قبل عشرين ألف مليون سنة قبل حادث « Big Bang » المشار إليه سلفاً ، اجتمع (ماستر الغوثان) و (الماستر المضاد) فى صورتين مختلفتين ، وقاما بتكوين العالم والعالم المضاد .

لقد قام بدراسة هذه النظرية أولاً عالم سويدي للطبيعة يدعى أوسكر كلين « Osker klien » وعالم الفلكيات الطبيعية هانيس الفوين « Hannes Alfuen » وقدا نتائج دراستهما فى سنة ١٩٦٣ ، ثم ثم أضاف الدكتور غوستاف نان « Gustav nan » بعدها نتائج بحثه فى أنه لا يمكن الإخبار تفصيلاً عن العالم المضاد بالقوانين المعروفة للطبيعة ، ولكنه متأكد بوجود العالم المضاد الذى هو منفصل عنا ، وله وجود متوازن لدنيانا .. وإن جميع الجسيمات المضادة توجد فى حالة غير مستقرة فى هذه الدنيا ولكنها ستكون فى حالة مستقرة وقائمة مع الدنيا

المضادة ، لأن جزئيات كافة الذرات ستكون لها قوة برقية سلبية ، وستكون لطاقة الألكترون قوة برقية إيجابية .

(ج) ولناخذ مثالا آخر جاء في القرآن عن (فرعون) .. إنه يقول :
« فاليوم ننجيكَ بيدنك لتكون لمن خلقت آية وإن كثيراً من الناس
عن آياتنا لغافلون » (يونس : ٩٣) .

وفاء بهذا الوعد حافظ الله على جثة فرعون لأجيال متلاحقة تحقيقاً
للعبرة ، وقد استخرج علماء الآثار الأوربيون جثة فرعون بمدينة مصر
القديمية طيبة « Thebes » بعد أعمال الحفر ، ويرى العلماء أن موسى
عليه السلام عاش عهد فرعونين ، ولد موسى عليه السلام في أيام رمسيس
الثاني وغرق ابنه مرنفتاح « Merniftah » عندما أراد أن يلحق بموسى
عليه السلام حين خرج موسى مع بني إسرائيل من مصر ، وقد عاش
فرعون وموسى في القرن الثالث عشر قبل ولادة المسيح ، وتوجد جثتا
فرعونين في المتحف المصري بالقاهرة للزيارة العامة ، وقد أثبت البحث
العلمي أن « مرنفتاح » هو نفس الفرعون الذي غرق في الماء .. فقد جاء
في الإنجيل أن فرعون مات غرقاً في البحر ولا يشير الإنجيل إلى استبقاء جثته
أدنى إشارة ، والتاريخ صامت في ذلك ، ولم يكن الإنسان يعرف شيئاً
عند نزول القرآن : وإلى ألف سنة بعد نزول القرآن عن جثة فرعون .
أليس ذلك مما يثير الإعجاب ويدل على كون القرآن كتاب الله ؟ ..

إن جثة فرعون قد تم العثور عليها ، وهي سليمة ولم يأكلها الدهر ،
ويقول الدكتور (موريس بوكاي) في كتابه « الكتب المقدسة في ضوء
العلم الحديث » : إن الذين يطلبون بالأدلة الحديثة التعرف على مدى صدق
الكتب المقدسة ، عليهم تدبر هذه الآيات من القرآن ، ثم عليهم أن يشاهدوا

الموميات المخططة فى المتحف المصرى بالقاهرة ، فسوف يرون (الشهادة المحققة لصدق القرآن) .

وأنا هنا أحيل الذين يريدون دراسة هذا الموضوع تفصيلاً إلى بقية ما أورده الطبيب العالمى (بوكاى) فى كتابه السالف الذكر ، فالحق أن هذا الكتاب ضاف فى هذا الموضوع ، فلقد كان المؤلف يعقد المقارنات بين القرآن والحقائق العلمية الحديثة ، وقد أمضى سنوات متتالية فى دراسة الموضوع ، وتعلم لغة القرآن إلى حد كبير ، ليدرك مفاهيم القرآن بلغته . ثم ألف هذا الكتاب الذى يحتوى على (٢٥٠) صفحة مقدماً المقارنات بين آيات القرآن والعلوم - كما ذكرنا - منتهياً إلى قوله الخطيرة :

إن هذه المطابقة الدقيقة بين كتاب قديم ومعلومات حديثة لا يمكن أن تكون دون صدور هذا الكتاب عن عقل فوق مستوى البشر ... ونظراً إلى أن العلم الذى كان موجوداً فى زمان محمد والمستوى الذى كان عليه هذا العلم فى عهده فإنه لا يمكن لأحد أن يستنتج أن تلك الآيات الإلهية التى تشير إلى الحقائق العلمية قد ظهرت من فكرة بشرية ، لكن من المعقول تماماً أن يعتبر القرآن ظهوراً للإلهام الربانى ، بل وتضاف إليه ميزة يتفرد بها ، وهو أن القرآن يؤكد صحته ببيانات علمية ليست فى غيره ، حتى من الكتب السماوية (المحرفة) الأخرى ، وإنه لتتضح لنا من دراسة هذه البيانات وصحة مدلولاتها أن الآيات القرآنية إنما هى تحد معجز لمن يقول : إن القرآن كتاب ألفه بشر .

ثالثاً : والمبدأ الثالث من الكلاميات القرآنية ، هو إبراز القرآن لجانب من هذا الكون الذى قرره الله لنا ميزاناً نحتكم إليه . فالقرآن يدعو إلى أن يعبد الإنسان ربه ، ويسلم نفسه لخالقه ذليلاً وخاشعاً .. ولم يقدم القرآن فى تأييد هذه المطالبة أدلة فلسفية بل استخدم أدلة طبيعية .. ولفهم هذه (م ٨ - قضية البعث)

المسألة علينا أن نتأمل في هذه الآية : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز » (الحديد : ٣٥)

والميزان آلة تزن وتعادل شيئاً بشيء . وفي ضوء هذا المفهوم يبدو لنا أن الكون كله ميزان الله ، لقد خلق الله كل شيء في هذه الخليقة على نفس ميزان العدل الذى وضعه الله للإنسان .. إن كل مخلوق مفسطور على هذا العدل ، وهو يعمل على العدل جبراً ، وعلى الإنسان أن يستقيم على العدل بإرادته الحرة ، وتفيدنا الآية أن الله أخبر عن كافة الطرق العادلة التى يحبها ويرضاها ، ومعنى « الميزان » أن الله أقام هذا العالم على نفس هذه الطرق العادلة ، وعلى الإنسان أن يسترشد بمبادئ العدل من القرآن بتلاوته ، ثم لينظر إلى عمله ، وما إذا كان موازياً لنظ العدل الذى أحبه الله لكونه . وقد ورد كمثل لذلك (الحديد) لأنه يمثل المزايا الممتازة للإنسان المؤمن ، فجميع أنواع النفع منطوية في هذه الدنيا بسلوك الإنسان الموثوق به ، وهذا هو النفع القوى الموثوق به للحديد في عالم المادة وإن الله ليطالبنا بنفس السلوك القوى الممتاز .

وهناك مثال آخر للنحل ورد في القرآن :

« وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يعرشون ثم كل من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللاً . يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون » (سورة النحل : ٦٩) .

ومعروف أن نظام النحل نظام اجتماعى شامل وكامل ، وفيه يمكن مشاهدة سائر الأجزاء ، التى تكون النظام الإنسانى للاجتماع والمدينة . ولكن نظام النحل يخلو من سائر المساوىء التى توجد فى النظام الإنسانى الاجتماعى ، فالنحل ينتخب مكاناً لإنشاء مجمع سكنى ، وبعد مصنعاً دقيق الصنع وبالعنصر ، ويأتى بالأجهزة اللازمة إلى المصنع من مسافة تبعد أحياناً مئات الأميال ، وعشرات الآلاف من النحل تعمل ما فرض عليها من الأعمال . وإن الإنتاج الثمين الذى يأتى من هذا المصنع هو « العسل » الذى يحتوى على نوع ثمين من الغذاء الذى فيه شفاء من الأمراض .

ويعيش النحل هذا النظام الرائع ، ولكنه لا يدمر مساكن الآخرين ببسط نفوذه وسلطانه عليهم ، ولا يطأ الزهور والرياحين ليشرب من رحيقها ولا تحدث حوادث المناوشات والاشتباكات فى حياته الاجتماعية مع بنى جنسه ولا يضيع قطرة من إنتاجه ، ولا يصرفها كلها على ذاته ، بل يتبرع بمقدار كبير منها لإشباع حوائج الآخرين ، ويسير كل أمر فى مجراه الطبيعى فى عالم النحل .

وهكذا يقدم النحل بطريقة فعلية - بأمر من الله - النموذج الذى ينبغى أن يختاره الإنسان لنظامه حتى يسير سيرته الجديرة به .

إن الأحكام الإلهية لتتمثل لنا فى الكون من خلال نماذج متعددة منها عبادة الله فى ظل الاتصال بقوانين الطبيعة ، ومثل السلوك الممتاز القوى المتمثل فى الحديد ، ومثل سفر الحياة دون الاصطدام مع الكواكب الأخرى فى مداراتها .. ومثل التضامن والتعاقد كما فى أعمال النحل ، ومثل الإفاضة على الناس دون أى تمييز ، كما تفعل أشعة الشمس ... وهلم جرا .

إن هذا الأسلوب للدعوة إلى التوحيد والطاعة الإلهية إنما هو أسلوب طبيعي ، وهو يقوم على الاستدلال الكوني الذي هو إرهاب لا زدهار علم الإنسان وعمله .. وإذا ما أخذنا هذا الأسلوب واستعملناه بطريق موثر فسنجد قلوباً واعية وآذاناً صاغية للإنسان في المجتمع البشري .

إننا نرى الإنسان يجعل تقويمه السنوي والشهري وفقاً لظهور الهلال وتدرجه إلى الكمال ونحن نرى أن الإنسان يجعل توقيته مرتبطاً بدوران الأرض حول الشمس ، ونلاحظ أن الإنسان يصنع الأشياء على نماذج الطبيعة (السفينة على نموذج السمك ، والطيارة على نموذج الطير ، والكاميرا على نموذج العين وما إلى ذلك من الأشياء الأخرى) . ومع ذلك فهو - للأسف - لا يجعل الأخلاقيات الكونية نموذجاً لأخلاقه وسلوكه ، وهذه مفارقة غريبة ، فالإنسان يتخذ الكون مقياساً له في المجالات المادية ، لكنه يرفض أن يتخذ الكون مقياساً أخلاقياً له ..

رابعاً : والمبدأ الرابع من مبادئ علم الكلام الجديد ، هو اتخاذ الأسلوب السلس البسيط للكلام ، وهذا الأسلوب البسيط هو الأسلوب الذي فيه سداجة حسب الحقيقة وسير الطبيعة وهو يخلو من الزخرفة .

لقد خلق الإنسان على فطرة بسيطة ، وإذا كان الكلام بسيطاً خلواً من التعقيد فسيكون كالشيء الدائري الذي وضع في مكان دائري ... وعلى العكس من ذلك إذا كان الكلام صناعياً فسيكون كالشيء المكعب الذي وضع في مكان دائري .. ومن ثم فنحن نرى أن الكلام البسيط السهل يسرع في طبيعة الإنسان وينفذ في أعماقه ويسيطر على وجوده ، بخلاف الكلام الصناعي المعقد الذي لا تنشربه طبيعة الإنسان ولا يستطيع أن يهضمه هضمًا صحيحاً أو لا يسيغه كلية .

لقد كان الأسلوب الأدبي رائجاً في قديم الزمان في سائر أنحاء العالم ، فمن شاعر يقدم أحاسيسه نظماً ، ومن كاتب يظهر أفكاره نثراً مسجوعاً ، ومن فنان يفصح عن مراثياته في تمثيله ، ومن قصصى يعرب عن مشاعره في صور قصصية .

ولكن الأسلوب الأقوى في عصرنا هو ذلك الأسلوب الذى يقدم الكلام بصورة واقعية وحقيقية ، ويفهم أن هذا الأسلوب الجديد هو نتاج القوة العلمية وهو يدعى (بالأسلوب العلمى) ولكن الحقيقة هى أن هذا الأسلوب ظهر لأول مرة في القرآن .

فالقرآن أول كتاب قام على الموضوعية والحقيقة في التاريخ ، وهو الذى أسس الأسلوب الطبعى ، وهجر الأسلوب الصناعى .. فإن الأسلوب العلمى إنما هو أسلوب قرآنى بحت ، ولكن بعد أن انتشرت العلوم العقلية (المنطق والفلسفة) بين المسلمين بعد نزول القرآن بمائة سنة ، سيطر الأسلوب الصناعى القديم على جميع العلوم الإسلامية مرة أخرى ، وكان القرآن قد قضى على ذلك الأسلوب ، فبدأ الناس يحسبون أنه امتلاك لناصية البيان أن تصاغ تعاليم الدين السمحة السهلة في قالب مصطلحات (المنطق) . وكانوا يحسبون أن من براعة الإنسان وقدرته على الكلام أن يقدمه في النثر المنظوم ، أو الشعر المنثور ، وقد آن الوقت لأن نعود إلى أسلوب القرآن ونعرض الإسلام على الناس في أسلوب علمى ، لأن الأسلوب العلمى في التحليل الأخير هو أسلوب القرآن !! ..

وإذا أخذنا بالأسلوب العلمى ، فسيغنى ذلك مجرد العودة إلى أسلوب القرآن .

البعث الاسلامى الجديد

إن الله يريد أن يعلو دينه ويتبوأ مكانة الفكرة المهيمنة على امتداد العالم .
ولأجل تحقيق هذا المقصد يجب أن تكون الظروف فى العالم مواتية ، وقد
جعل الله الظروف مواتية لخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم بعد تتابع عشرات
القمرون قبل البعثة ، وقد عرف رسول الله كيف يستخدم هذه الأحوال
والظروف حتى يكون الدين فكرة مهيمنة ومسيطره فى العالم .

ولقد جعل الله الظروف مواتية مرة أخرى نتيجة عمل دام ألف سنة
ليكون الإسلام فكرة غالبية من جديد وليستعيد مجده الغابر .

ولكن تحقيق الآمال والأفكار فى الواقع يحتاج إلى جهود جدية ملائمة
والى الوعى العميق بظروف العصر ، مع التسامى عن نفسية رد الفعل ،
مع التركيز على الغاية والتضحية بكل مطلب آخر حتى تستنير الأمة بنور
الحكمة الربانية لا بالعقل الإنسانى المعوج ، ومقصدها رفع راية الله فى
الأرض لا رفع راية المجد القومى أو العظمة المادية .

والذين قاموا بهذه الجهود فى الماضى أعلوا دين الله ، والذين سيقومون
بهذه الجهود فى الحاضر عليهم أن يعلوا دين الله ، وأما الذين يستقبطون
اهتمامات الناس بالهتافات والشعارات ، ويلهثون وراء قضية مبتدعة ،
إنما يضيعون الإمكانية العظيمة لإحياء الإسلام ، وهؤلاء ليسوا ممن يريدون
إصلاح الواقع ، وإنما هم دعاة أمجاد زائفة ومغانم شخصية .

مقارنة :

إن الانقلاب الإسلامى الذى تحقق فى زمان رسول الله صلى الله عليه
وسلم اكتملت إنجازاته فى (٢٣ سنة) فقط ، وذهب ضحيته (١٠١٨)

شخصاً فقط ، وعدد الغزوات في هذه الفترة لا يتجاوز (٨١) غزوة .
وقد ساهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه في ٣٧ غزوة فقط ،
ولم تحدث معارك إلا في غزوات قليلة فقط ، وعدد القتلى في هذه الغزوات
كما يلي :

المسلمون ٢٥٩

المشركون ٧٥٩ = ١٠١٨

لقد كانت هذه النهضة أكبر نهضة في التاريخ الإسلامي كله ، وقد
غيرت مجرى التاريخ ، مع أن عدد القتلى في هذه الحركة الكبرى ضئيل جداً .
وجرباً على العادة فإن المتحمسين من كتابنا وخطبائنا يقارنون هذه الحركة
الإسلامية بثورات غير إسلامية في هذا العصر الحديث ، فيقولون مفتخرين
إن هذه الثورة نجحت في التاريخ بالتضحية بألف نفس فقط .. بينما حققت
الثورة الديمقراطية في فرنسا والثورة الاشتراكية في روسيا بالتضحية بنفوس
يربو عددها على مئات الآلاف .

ولا شك أننا نحجب هذه المقارنة لأن فيها غداء لنفسية الفخر والاعتزاز
ولكن ثمة طريقاً آخر للمقارنة لم يتأمله المسلمون قط ، ولعل السبب في ذلك
أن المقارنة بهذا الطريق الآخر تعطينا العبرة ولا تعطينا الفخر .. والعبرة
أصعب وأمر ..

فالطريق الآخر للمقارنة هو المقارنة بين عدد القتلى في سبيل الدعوة
الإسلامية التي ظهرت في الصدر الأول من تاريخنا وبين عدد القتلى في
الحركات الإسلامية التي ظهرت في العصر الحديث .. لقد قام المسلمون
بحركات إسلامية كثيرة مستخدمين أسماء الثورة الدينية والجهاد الإسلامي :
ومن الواجب على هؤلاء المسلمين أن يقارنوا هذه الحركات بالدعوة الإسلامية

التي تحققت على يد الرسول صلى الله عليه وسلم مثل مقارنتهم الثورات غير الإسلامية في العصر الحديث بالدعوة الإسلامية في القرن الأول .

ولئن دل هذا الطريق الآخر من المقارنة على شيء فإنه يدل بشكل مدهش على أن الحركات الإسلامية الكثيرة تقف نفس الموقف الذي تقفه الحركات اللادينية في هذا العصر الحديث .

لقد ذهب ضحية نضال التحرير في الهند خمسمائة ألف من العلماء والمصلحين المسلمين ، وذهب ضحية إخراج باكستان الإسلامية إلى الوجود عشرة ملايين شخص ، والذين لاقوا حتفهم باسم الإسلام في سوريا والعراق وإيران ومصر يبلغ عددهم عشرات الملايين .. وأدهى من ذلك وأمر أنه لا نتيجة مكافئة لهذه التضحيات الجبارة على الإطلاق .

لقد قتل ألف شخص في الحركة الإسلامية الأولى قبل أربعة عشر قرناً وانتشرت هذه الحركة مشرقة ومغربة على وجه الأرض وغبرت مجرى التاريخ وتأثر بها العالم قاطبة ولا يزال متأثراً بها على مر العصور . . ولكن الحركات الإسلامية التي أثبتت في العصر الحديث قتل فيها مائة مليون مسلم تقريباً ولكن لم تخرج إلى حيز الوجود قطعة من الأرض حيث يمكن لنا أن نشاهد فيها الثورة الإسلامية الحقيقية ناجحة ومجدية .

ومما زاد الطين بلة أن جهودنا أسفرت عن نتائج عكسية ، وأصبحنا مصداقاً لما جاء عن اليهود في الكتاب المقدس : « إن بشكم البذور سيذهب سدى لأن أعداءكم سيأكلون محاصيلكم ، وأعداؤكم سيكونون ولاية أمورك ، وإن قوتكم سيضيع ، ولن تنبت أرضكم شيئاً ، ولن تثمر أشجاركم في البساتين »

لقد أصبح تاريخنا الجديد مصداقاً لهذه الكلمات ، فقد قمنا بحركات كثيرة باسم الخلافة الإسلامية ، والتضامن الإسلامى طبقت الآفاق ، وملأت الآذان بالهتافات ، وضحينا بنفوسنا ونفائسنا فنتج عن ذلك أن العالم الإسلامى قد تمزق وأصبح دويلات متعددة . . لقد جاهدنا فى سبيل الوطن ولما تحرر الوطن سيطر عليه الآخرون ، وبذلنا دماءنا وأموالنا لإبراز باكستان الإسلامية إلى حيز الوجود ، ولما برزت ذهبت السلطة إلى زعماء لا يدينون بالولاء إلى الإسلام (١) .

وقد أقمنا حركة جبارة لإقامة النظام الإسلامى فى مصر ، وعندما تقرر مصير مصر غلب علينا المغامرون العسكريون .

ويجرى الكفاح من ثلث قرن للقضاء على الدولة اليهودية فى فلسطين ويبدل المسلمون كل غال ونفيس فى سبيل الوطن الفلسطينى ، ومع ذلك يزداد اليهود قوة وتزداد الدولة اليهودية اتساعاً ، وسوف يستمع المسلمون عما قريب إلى نبأ فاجع آخر هو أن إيران التى حدثت فيها ثورة إسلامية (عنيفة) وبعد توضيحات جسيمة ... ستولى مقاليدها القوى الإلحادية بصورة تدريجية .

إن هذه الحقائق حقائق صلبة وقاسية وهى أكثر صلابة من الحجارة ، ويمكن لأى شخص أن يعيش فى عالم الآمال والأمانى الوهمية الكاذبة ، ولكن مؤرخ المستقبل لن يصدق هذه الآمال والأمانى ، وسيضطر لتسجيل أن الذين أحدثوا الثورة الفرنسية أو الثورة الروسية قد غيروا طريقة الفكر فى العالم على الأقل (٢) فحلّت فكرة (الجمهورية) محل فكرة الاستبدادية

(١) نرجو أن يكون اتجاه الحكومة الجديدة فى تطبيق الشريعة بداية ضرورية (المراجع) .
(٢) وإن كان تغيير معظمه الى الأسوا (المراجع) .

وتحلت فكرة الاشتراكية محل فكرة الرأسمالية ، أما الذين ماتوا باسم الإسلام - حتى وإن كانوا أكثر عدداً - فإنهم لم يستطيعوا أن يؤثروا أبداً تأثير على مجرى الفكر العالمى .

وإن الانقلاب الذى حدث فى فجر الإسلام ليدلنا على أن ألف شخص فقط قد رضوا بالتضحية فى سبيل الدين ، فقبل الله تضحياتهم وانتصر الإسلام فى الأرض ، ولكن المسلمين قد ضحوا فى الأيام الأخيرة بعدد لا يقل عن عشرات الملايين ولكن مع ذلك لم يحالفهم النصر الإلهى ، وكانوا .. ومازالوا ، مغلوبين .. وإن ذلك لأكبر شهادة على أن معظم هذه التضحيات لم تكن على الصراط المستقيم الذى وعد الله الذين يلتزمون به بالنصر العزيز والفتح المين .

إذا قال لك فلاح أنه بذر بذور القمح فى التربة فأنبئت الأشواك والأعشاب الصحراوية ، فإنه يكذب عليك ، لأنه لا يمكن فى هذه الدنيا التى خلقها الله أن يذر إنسان بذور القمح فتخرج من الأرض الأعشاب والأشواك.. إن هذه استحالة ما بعدها استحالة . ولو كانت تضحياتنا فى هذا العصر على الطريق التى سلكها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتфанوا فيها لكان مستحيلاً أن لا تظهر نتيجة إيجابية.. هذا هو المنطق والواقع ..

وبالرغم من ذلك فإذا رضى شخص لنفسه أن يعيش فى قبة الأحلام والآمانى فسوف يعيش ردىاً من الزمن ، لكن مع ذلك تقوم القيامة التى تهدم قبة أحلامه ، وسوف يرى أنه يقف بمفرده على أنقاض الأحلام المحطمة

النصر الإلهى :

لقد ورد فى القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » (محمد ٧) ، ومعنى « تنصروا الله » أن تسيروا بخطه الله

فإن لله خطة خاصة لإخراج الأحداث ، وإن ربط جهودنا بخطة الله ، واستخدام الظروف استخداماً صحيحاً يرادف تحقيق شرط « إن تنصروا الله » والذين ينصرون الله بهذا الطريق فإن الله يثبت أقدامهم ويبلغهم غايتهم . ولا يمكن بلوغ المنى في هذه الدنيا التي خلقها الله إلا بالمشاركة العملية في الخطة الإلهية ، وإنه لن يمكن الوصول إلى الغاية بالجهود المتفرقة العشوائية ولتتفهم هذه المسألة أحكى القصة التالية :

لقد تمنى أسقف من الأساقفة أن يكون في ضمن بيته شجرة كبيرة وارقة الظلال ليستظل بظلها ، فرأى أنه إن بذر البذر فسوف يتحول البذر إلى شجرة كبيرة في مدة عشر سنوات ، فدارت في خلدته فكرة أخرى ، لقد استأجر أشخاصاً اجثثوا له شجرة كاملة بجذورها وفروعها وأغصانها وأوراقها ونقلوها إلى صحن بيته ، وزرعوها في التربة بعد حفر الأرض . وكان الأسقف مرتاح البال لأنه قطع مسافة عشر سنين في يوم واحد ولكن في صبيحة اليوم التالي عندما استيقظ من نومه رأى الأوراق قد ذبلت والأغصان قد تدلت نحو الأرض .. وبعد عدة أيام رأى الأوراق قد جفت وتساقطت ، ولم يبق من الشجرة إلا أخشاب ربما تستعمل للوقود .

وقد جاء صديق للأسقف فرأى أنه يمشى في صحن بيته عند الشجرة الذابلة الخاوية في اضطراب فسأله عن السبب في توتره ، فأجاب : « لقد كنت مستعجلاً وقوانين الله لا تستعجل » .

وبعدما قص الأسقف هذه القصة لصديقه استعبر فقال : إن جميع الأحداث التي تحدث في هذه الدنيا يكون فيها العون من الله من جانب والعمل من الإنسان من جانب آخر .. وذلك مثل الدولابين القديمين ، فإنه بترابط الدولابين القديمين تتكون الماكينة وتتحرك الآلة ، وهكذا

فهناك عون من الله ودولاب من الإنسان ، فإذا ترابط الدولابان وتسايرا فسوف يصل الإنسان إلى الفوز ، وعلى العكس من ذلك إذا دار دولاب الإنسان بدون مراعاة قوانين الله فسوف ينكسر دولاب الإنسان ، لأن عون الله قوى ، ودولاب الإنسان ضعيف .

إن الله قد بسط التربة الخصبة على سطح الأرض وربما استغرق هذا العمل آلاف السنين لتنبت شجرة عليها ، وقد خلق شمساً وهاجة وألقى بأشعتها المناسبة على هذه التربة ، ثم وفر المياه بترتيبات كونية عظيمة ، ونظم تربية الشجرة بتغيير المواسم ، فخلق الله مئات الملايين من « البكتيريا » لتغذى جذور الشجرة أغذية الأنثروجين ، وجميع هذه الترتيبات هي قوانين الله وعونه ، فعلى الإنسان بعد ذلك أن يربط دولابه بقوانين الله وسننه ، كي تتحول هذه الإمكانيات إلى شجرة ، فيبدأ الإنسان أولاً بأن يأخذ بذراً ويدسه في التراب ، فإن هذا العمل هو في الواقع ربط دولاب الإنسان بسنن الله ، وما إن يتم هذا العمل ، حتى تأخذ ما كينة الطبيعة تتحرك وتعمل ، وستسفر عن نتيجة ، وستنبت شجرة طيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، وعلى العكس من ذلك فإن الإنسان إذا ألقى البذر في الحجارة أو دس (البلاستيك) بدلا من البذر في الأرض ، أو اجثت الشجرة بجذورها وزرعها في مكان آخر ، فإنه لم يربط دولابه بسنن الله ، ولم يربط نفسه بخطة الله . . وبالتالي فلن يقدر له أن يملك شجرة مورقة مثمرة .

وهذا هو الواجب على دعاة الإسلام .. عليهم أن يبدأوا بتفهم الإمكانيات واستخدامها استخداماً صحيحاً ، ولا يقوموا بأعمال طائشة أو جهود عشوائية فقد تحققت الثورة الإسلامية الأولى - كما ذكرنا - لأن عباد الله المخلصين

قد ربطوا دولابهم بسنن الله وبينما ذهبت كافة تضحياتنا أدراج الرياح لأننا فصلنا أنفسنا عن سنن الله وظللنا نشتغل بما لا يعيننا بطريقة غير واعية .

دين التوحيد ودين الشرك

يبدو من الإشارات الواردة في القرآن أن الدين الأول الذي شهده هذا العالم بعد آدم كان دين (التوحيد) وقد بقي هذا الحال قروناً عديدة ثم بدأت عبادة المظاهر التي تسمى بالشرك فتعذر على الإنسان أن يتوجه إلى ما لا يراه ، فانصرف إلى من يراه ، ولو كان يعتقد بوجود الله ، ولكنه أخذ يعبد الشمس والقمر والكواكب والجبال والبحار حتى بدأ يسجد لكل شخص حكم على الأرض ، فبعد عهد (التوحيد) الذي بدأ بعد آدم بألف سنة تقريباً ظهر عهد الشرك وانقضى عهد الغلبة الفكرية للتوحيد وسيطر الشرك على الأذهان .

لقد بعث الله برسله بعد هذا الفساد الذي شاع في دين التوحيد ، ولكن لم يحظ هؤلاء الرسل قط بقوة أو شعبية ليستعيد دين التوحيد مكانة الغلبة والاستيلاء ، ولقد بعث هؤلاء الرسل في كل نواحي الأرض ، ووفقاً لحديث شريف فإن عدد هؤلاء الرسل بلغ مائة ألف تقريباً ، ولكن ما من رسول إلا وقد استهزئ به في زمانه .

وإن الإنسان عندما ينكر أمراً طيباً فلا بد أن يكون ذلك على أساس شيء . كأن يكون في غنى عنه ، أو عنده بدبل عنه . فما هو هذا الغناء ياترى إن الجواب يرد في هذه الآية :

« فلما جاءهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العالم وحق بهم ما كانوا به يستهزئون » .

والمراد بهذا العلم في هذه الآية هو الدين الفاسد الذى أصبح مقدساً على مرور الأيام ، وإن مثل هذا الدين الفاسد الموروث يكون ديناً قد انغرس - للأسف - جذوره ، فربط نفسه بأسماء الصالحين والأولياء ، وعلى أسسه تبنى العمارات الشائخة من النفوذ والسلطة ويقوم عليه الهيكل القوى ، ويتبوأ أسمى مكانة بتأثير التقاليد والتاريخ .

لقد كان عند هذه الشعوب دين راسخ متين قائم على الشرك .. وقد ظهر إلى جواره دين يدعو إلى التوحيد ، لكن صوته لا يكاد يسمعه أحد في بدايته ، وقد بدا دين الحق وكأنه الدعوى التى لم تحتشد لتأييدها تصديقات التاريخ . وليس عند اندين الجديد لإثبات دعواه إلا الدليل اللفظى لا الدليل النفعى .. وبالتالي فعندما يقارنه القوم بدين الآباء النفعى فسرف يرونه أقل فائدة من دين الآباء . لقد كان المسيح عليه السلام بدون مأوى ، وكان يأوى إلى شجرة لينام تحته ، بينما كان إلى جواره (الرئيس الدينى لليهود) يمشى فى خيلاء ، ويعيش فى بحبوحة ، وفى مبنى عظيم هو الهيكل . فكيف يرى الشعب ذلك الشخص الذى ينام تحت الشجرة على الحق ؟؟ وبخاصة بمقارنته مع ذلك الشخص الذى يتبوأ مكانة عليا فى الهيكل ، ولذلك تستهزئ الشعوب بالرسول ، وتنكر رسالتهم على أساس تشبهاً بذيول الأكابر الذين ليس منهم الأنبياء والرسول ، فكيف يمكن لهم أن يقدرُوا شخصاً عادياً ؟؟

لأنهم لم يكونوا يريدون أنبياءهم دعاة للحق ، بل يريدونهم أبطالا لتاريخهم ، حتى يكونوا مبعث فخر واعتزاز .

إعلاء كلمة الله

لعلك قد رأيت على مفرق الشوارع عموداً فيه إشارات من النور الأحمر والأخضر ويشير النور الأخضر إلى السماح بالمرور للعربات ،

أما النور الأحمر فيشير إلى عدم السماح بالمرور ، وإذا خالفت سيارة هذه النظم والقوانين يصبح سائقها أهلاً للعقوبة .

إن (داعى الحق) يكون فى غمار الحياة بمثابة (عمود) على مفرق الطرق ، وهو مأمور من الله أن يقف على مفرق الطرق ، وأن يدل الناس على الصراط المستقيم ، ويخبرهم عن الطريق الذى يؤدى إلى الجنة .. والطريق الذى يؤدى إلى النار .

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً »

لقد جاءت الرسل ترى فى هذه الدنيا بعد أن انقضى عهد التوحيد الذى بدأ منذ أن هبط الإنسان على هذا الجزء من الكون ، لقد جاءوا مرشدين للناس .. حباهم الله بالعلم الصحيح ليعلموا بنى جلدتهم ، ويخلقوا فيهم التمييز بين الخير والشر ، والحق والباطل . وقد أدى كل رسول ما ألقى إليه من مسئولية ، وبينوا الحق فى لغة مفهومة ، وأنوا بكل البراهين والحجج ، حتى وصلت رسالة الله إلى المخاطبين ، مبينين أن من آمن برسوله استحق الجنة ومن عصاه وتمرد عذاب النار .

ولكن الله أراد أن يظهر دينه لا أن يعلنه فقط .. والإعلان هو أن يدعو الناس إلى الحق ، وأن يعرض الحق مع مراعاة جميع جوانب الحكمة والموعظة ، حتى يتبين أنه الحق ، وحتى لا يمكن لأحد أن يحتج بقوله : إنى لم أسمع عن الحق ، ولم أكن أعرف طريق الهداية فى الحياة الدنيا .. وهذا هو (تمام الحجة) ؟

وأما (إظهار الدين) فهو خطوة أخرى بعد تمام الحجة ، ومعناه أن تكون فكرة الدين فكرة غالبة فى العالم . وأن تكون سائر الأفكار

الأخرى مغلوبة على أمرها . . وهذا هو إعلاء كلمة الله بتعبير آخر ،
وليس المعنى الأصيل والحقيقى لإظهار الدين وإعلاء كلمة الله مقتصر على
تنفيذ الحدود والأوامر الشرعية ، بل المعنى الحقيقى هو الهيمنة الفكرية ،
مثل تلك الغلبة التى تحققت للدينوقراطية فى بعض البلدان ، وللإشتركية
فى بلدان أخرى (١) ، وللعلوم التجريبية على الفلسفة القياسية فى هذا العصر .
وقد أحرزت بعض العلوم فى هذا العصر العلمى قصب السبق العلمى ،
وفقدت بعض العلوم الأخرى امتيازها ومكانتها الفائقة .

فالمطلوب من المسلمين هو مثل هذه الغلبة الفكرية لدين الحق على
دين الباطل . .

ومعروف أن الله قادر مطلق ، وكان أهون عليه أن يجعل الحق ظاهراً
على الباطل ، كما جعل ضوء الشمس غالباً على الأضواء الأخرى ،
ولكن هذه الدنيا إنما خلقها الله دار الامتحان ، وسنة الله أن يحدث
الأحداث المطلوبة فى هذه الدنيا بطريق الأسباب ، لا بطريق (المعجزات)
ولهذا خلق الله أوضاعاً فى إطار الأسباب ، لتحقيق هذا الهدف ، كما أنه
أرسل رسولا يتمتع بميوه الهيمنة بوجه خاص ، ويعمل عمله وفق سنة الله
لإظهار دين الحق لا لإعلانه فحسب ، لتتم نعمة الله على عباده ولتفتح
عليهم أبواب الرزق التى ظلت مغلقة بسبب سوء تصرفاتهم ووجود الفساد
فى أعمالهم ، وهذا هو الذى ورد فى القرآن ، فى قوله تعالى :
« يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون »

(١) لكن مع الاحتفاظ للإسلام بوسائله الكريمة (المراجع) .

هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون»

تكوين أمة جديدة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا دعوة إبراهيم » .. ودعا إبراهيم حين كان بينى الكعبة : « ربنا وابعث فيهم رسولا » (البقرة ١٣٩) ولكن الفترة الزمنية التى تحققت فيها دعوة إبراهيم تمتد إلى حوالى ألفين وخمسمائة سنة ، وهى الفترة ما بين دعاء إبراهيم وولادة الرسول صلى الله عليه وسلم .. والأمر الذى يحمل على التفكير والتأمل هو أن زكريا عليه السلام عندما دعا الله أن يرزقه ولداً ، لم ينتقض إلا عام واحد حتى استجيب دعائه وولد يحيى عليه السلام .. وحين دعا إبراهيم مثل ذلك الدعاء فإن الاستجابة الفعلية تحققت بعد ألفين ونصف ألف عام .. فما الفرق بين هذين الأمرين المختلفين ؟

إن الفرق هو أن يحيى عليه السلام كان عليه أن يؤدى دوراً مؤقتاً ، فقد بعث ليفضح مكائد اليهود ، ثم يقتل ، ليبرهن بقتله على أن اليهود قد بلغوا من الفساد شأواً بعيداً ، حتى انقطع أمل لإصلاحهم ، وكان الأوان قد حان ليتم خلعهم ، حتى يحمل قوم آخرون مسئولية الكتاب الإلهى .

ومقابل ذلك كانت مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدحض الشرك وأن يتبوأ التوحيد مكان الفكر الغالب المسيطر .. وكان العمل يقتضى تكوين أمة صالحة جديدة وإيجاد أوضاع مواتية منسجمة مع السنن الكونية . وكانت هذه هى خصائص الأمة الصالحة ، كما كانت هذه هى الأوضاع التى أخذ لإيجادها ألفين وخمسمائة سنة .

وبناء على هذه الخطة أمر سيدنا إبراهيم أن يخرج من المنطقة المليئة

بالشوائب الحضارية في العراق ، وأن يسكن ابنه (إسماعيل) وأمه (هاجر) في واد غير ذى زرع في الحجاز ، حيث كانت الأرض جدياء غير قابلة للزراعة ، ولذلك كانت بمنأى عن العالم المتحضر حين ذلك ولذلك كانت الأرض صالحة لبناء قوم غير ملوثين بأوضاع المدنية وسوءاتها ، لتكون مواهب أولئك القوم مصنونة من الأخلاق الدنسة : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » (البقرة : ١٣٨) وإن هذا التأخير الممتد إلى (٢٥٠٠ سنة) في استجابة الدعاء الفعلية ليبرهن على أن المقصود إنما هو تكوين أمة ذات ميزات ومواهب حيوية بطريق التناسل الطبيعي في بيئة خاصة كى تحمل رسالة الدين الإلهي لتكون الأمة مطهرة من النقائص الصناعية التي سببت الفقر في الرجال الموهوبين خلال عهود خلت .

وعندما استتببت الأمور وتحققت الشروط والأسباب ، وتوافرت المؤهلات - بعث الله النبي الغالب ، فولدته آمنة بنت وهب من بنى هاشم واستجيب الدعاء الذي كان قد جرى على لسان إبراهيم قبل (ألفين وخمسمائة)

لقد أسكن إبراهيم بأمر من الله (هاجر وإسماعيل) في مكان تقع فيه مكة في هذا الوقت ، وكان المكان قاحلا جدياً ليس فيه إلا الحجارة الجرداء ، ولما انتهى ماء القرية واشتد الظمأ وأخذ إسماعيل يضطرب من الظمأ ظهر ماء زمزم في أرض جدباء ، فكأن الله قد أعلن أنه لن يترك إبراهيم وإسماعيل بعد أن أرسلهما إلى هذا المكان الشاق .. إن هذا الأمر هو أمر الله وبالتالي سوف ينصره الله في كل مرحلة حرجة حاسمة ، ولما بلغ إسماعيل عنفوان شبابه رأى أبوه في رؤياه أنه يذبحه ، فأيقن أن ذلك أمر الله ، ورضى بذبح إسماعيل ، وأوشك على ذبحه ، ووضع السكين على رقبته ، حتى فداه الله بكبش عظيم ، وأمر الله بذبحه بدلا من إسماعيل .

ويعتبر هذا العمل في الواقع إشارة من الله إلى أنه طلب أمراً عظيماً وتوضيحاً كبيراً ، والغرض هو امتحان العاطفة والشعور وليس القتل أو الذبح ، بل هو توجيه الشخصية لغرض كبير آخر .

وعندما كبر إسماعيل تزوج بفتاة من قبيلة (جرهم) التي كانت قد عمرت مكة ، وذات يوم جاء إبراهيم من الشام راكباً فرسه ، ولم يكن إسماعيل في البيت بل كانت هناك زوجته التي لم تكن تعرف حماها ، فسألها إبراهيم عن إسماعيل . فقالت : ذهب للصيد ، ثم سألها عن الحالة المالية فشكت من قلة المال والحياة الحشنة ، فودعها إبراهيم وقال لها : عندما يأتي إسماعيل بلغيه سلامي وقولي له « غير عتبة بيتك » ، وعندما سمع إسماعيل هذه القصة أدرك أن أباه جاء ليتفحص حاله وفهم أن كلمة « غير العتبة » إنما هي استعارة معناها (اهجر هذه الزوجة واتخذ زوجة أخرى) لأن الزوجة الموجودة لا تصلح لإيجاد جيل يريد الله لتنفيذ إرادته في واقع الدنيا فطلق إسماعيل زوجته وتزوج امرأة أخرى ، ثم حدث أن عاد إبراهيم مرة أخرى راكباً فرسه ، ولم يكن إسماعيل موجوداً في البيت هذه المرة أيضاً فسأل إبراهيم نفس الأسئلة ، فأثنت الزوجة الجديدة الثناء العاطر على إسماعيل وقالت : « لقد أعطانا الله خيراً كثيراً فله الشكر » ، فقال لها إبراهيم : عندما يأتي إسماعيل بلغيه سلامي وقولي له « ثبت عتبة بيتك » بمعنى أن هذه الزوجة الجديدة تصلح لتنفيذ إرادة الله التي اختطها لعباده ، فحافظ على علاقتك بهذه الزوجة الطيبة .

وهكذا في منطقة عربية منزوية نائية أخذ جيل جديد يتكون من سلالة إسماعيل ، وتمثل ذلك الجيل في النهاية في قوم يدعون : بني إسماعيل ، وبعث من هؤلاء القوم في آخر الزمان محمد صلى الله عليه وسلم ، ليحمل هذا الجيل مسؤولية التاريخ العظمى التي أراد الله أن تناط به .

إن هؤلاء القوم الذين نشأوا في جزيرة العرب وشبوا في الكثبان الرملية والصحارى القاحلة الجذباء ، كانوا يتمتعون بميزات يمكن تلخيصها في كلمة واحدة هي « المروءة » ومعنى (المروءة) الشهامة والرجولة .. وهى كلمة كانت تستعمل لإظهار جوهر الإنسانية عند العرب .. يقول شاعر عربى :

إذا المرء أعيته المروءة ناشئاً فمطلبها كهلا عليه شديد

وقد درس المؤرخ « فيليب حتى » تاريخ العرب دراسة مستفيضة ، ومن حصاد دراسته يقول :

(.. إن القوم الذين أخرجوا إلى الوجود في هذه القرون كانوا قوماً عجباً من أقوام هذه الدنيا ، وكانوا يتسمون بالميزات والمواهب التى من أهمها : الهمة والصبر والمثابرة والجلد ومراعاة حقوق الجيران والرجولة والشهامة والسخاء وقرى الضيوف واحترام النساء والوفاء بالوعد) .

خير أمة

ومن خلال عمل استمر في التاريخ ٢٥٠٠ سنة ، أخرجت أمة كانت أحسن الأمم من ناحية الصفات الإنسانية « كنتم خير أمة أخرجت للناس » (آل عمران) ، وقد قال عبد الله بن عباس : إن المراد من « خير أمة » جماعة المهاجرين ، وهم الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة (تفسير بن كثير) . إذ كان المهاجرون في الواقع رمزاً لهذه الجماعة .. لكننا نرى أن المراد من (خير أمة) المسلمون الذين نسميهم (أصحاب الرسول) ، والمراد أيضاً جميع الأشياع المخلصين للأنبياء على اختلاف عصورهم وأمصارهم ، بشرط واحد هو أن يكون دينهم الذى يتبعونه غصاً طرياً نقياً كأن عهده بالوجود أمس :

إن الأمة الإسلامية التي نشأت في بلاد العرب كانت تمتاز بميزة نادرة ،
وهي ميزة إدراك الحق بمجرد الدليل ، والا نقياد للحق البسيط الذي يخلو
من عنصر البهرجة والتزييف .

إن تلك الأمة التي نشأت وشبت تحت الشمس الساطعة ، والسماء الزرقاء
والفيافي الواسعة .. تمتاز بالقدرة على معرفة الحقيقة بشكلها البسيط المجرد
عن الشوائب وهي تسلم نفسها إلى « الحق » الذي لا يعود عليها بفائدة
دنيوية في الظاهر .

إن هذه الميزات هي التي جاءت في وصف عبد الله بن مسعود
لصحابة الرسول ، بقوله :

(.. كانوا أفضل هذه الأمة ، أبرها قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً ..
اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه ..) .

وإن أهم ميزة تفقدها عصور الشرك هي النظر إلى الحق بطريقة سطحية
فهي لا ترى الحق إلا في المظاهر البارزة والمحسوسات ، وقد حرمت من
القدرة على رؤية الحق بطريقة مجردة من المظاهر .

وهذه هي العقبة التي كانت تقف في سبيل إدراك الحقيقة ، ولذلك
ما بعث نبي إلا استهزأ به قومه .

إن المشركين لم يكونوا منكرين لله ، ولكنهم صهروا وجود الله في بوتقة
(المحسوسات) ولم يكونوا قادرين على أن يعرفوا الله الموجود في الغيب
وقد افترضوا أشياء من المحسوسات والمدركات على أنها تماثيل (لله)
فأقبلوا عليها راكعين وساجدين ، سواء أكانت هذه المحسوسات أشياء مادية
أم بشرية .. وهذا هو الضعف الذي أدى إلى إحجامهم عن الإيمان بالرسالة
فكل نبي عندما يبعث يكون مجرد إنسان مثل الناس في زمانه ، ولا تحوطه
الأمجاد التاريخية التي تحوطه بعد مضي الزمان .

دعا إبراهيم ربه

لقد دعا إبراهيم ربه ، فقال :

« رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام . رب إنهم أضلن كثيراً من الناس . فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا » (إبراهيم : ٣٥ - ٣٧) .

ولقد بلغ استيلاء الشرك في عهد إبراهيم عليه السلام الذروة ، وكانت المعابد تقام من أبنية فخمة كبيرة ، وقد تعذر الإنسان أن يفكر منفصلاً عن الإطار الفكري القائم على الشرك ، فأراد الله في ذلك الزمان أن يخرج إلى حيز الوجود جيلاً جديداً في رمال وعناء وجبال جرداء ، وكانت الخطوة أن يتم تربية أفراد في منطقة نائية ، حيث يسهل إدراك الحقائق ويرتفعون عن الظواهر ، ومن هذه الصفوة المنتخبة من الناس تم إخراج أمة وصفها القرآن بالكلمات التالية :

« ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون » (الحجرات : ٧)

ونحن لا يمكن لنا أن ندرك معنى هذه الآية إلا إذا رجعنا إلى الماضي عندما نزلت هذه الآية قبل ألف وخمسمائة سنة ، عندما حدث هذا الانقلاب العجيب ، وهو إيمان أصحاب الرسول ، إنهم أدركوا إلهاً غير مرئي في زحمة الآلهة الكثيرة المرئية ، ثم ضحوا في سبيله بكل ما كانوا يملكون من نفوس ونفائس ، إنهم أدركوا رسولا مجرداً من الزهو المادي من بين منارات العظمة الشاغحة ، ثم سلموا نفوسهم إليه ، وإن ديناً غريباً مجرداً

من كل مكانة من العزة والجاه قد أصبح محبوباً لديهم إلى حد أنهم لم يعد صعباً عليهم تقديم أية تضحية - مهما كثرت - في سبيله .

ومجمل القول أنهم أدركوا الصديق المجرد في هذا الدين ، قبل أن يظهر التاريخ أجماده وعظمته ، وقبل أن يصبح هذا الدين رمزاً للفخر القومي والحضارى .. وإن هذا الإيمان الصادق المجرد كان يعنى التضحية الكاملة ، دون انتظار أى مقابل من الخطوة أو المكانة أو النفع الذاتى أو القومى .

وناهيك ببيعة العقبة الثانية لفهم هذه الحقيقة ، فعندما ضاقت الأرض بالإسلام فى مكة ، بدأ الإسلام ينتشر فى المدينة حتى جاس خلال كل دار فيها تقريباً ، فأزعم فى هذا الوقت بعض الناس أن يذهبوا إلى مكة ، ويباعوا بيعة النصرة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويطلبوا منه ترك مكة إلى المدينة.

يقول جابر الأنصارى : عند ما بلغ الإسلام إلى كل دار فى المدينة تشاورنا وقلنا : إلى متى نترك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الحال ، ثم ائتمرنا جميعاً فقلنا : حتى متى نترك رسول الله يلاحق ويطارد فى جبال مكة وحتى متى نتركه عرضة للسفلة الذين يحكمون بالظاهر السطحى ويقولون إنه ليس برسول الله ، ولو كان رسول الله لما رزى بهذه المصائب .. وهكذا أزمعنا الرحيل إلى المدينة .

ففى هذه المرحلة الدقيقة الحاسمة من تاريخ الإسلام جاءت جماعة ينيف عددها على سبعين ، وباعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف كانت هذه البيعة ؟ وكم كان الوضع مفعماً بالخطر .. ؟

إن هذا وذاك يظهر لنا عن طريق عضو بارز فى هذه الجماعة المؤمنة وهو كعب بن مالك الأنصارى .. إنه يقول : إننا أخذنا الطريق إلى مكة

باسم الحج مع قبيلتنا التي أرادت زيارة الكعبة ، فخرجت القبيلة على مكان بالقرب من مكة ، فلما أقبل الليل نمنا مع الآخرين ، وعندما انقضى ثلث الليل ، وكان الناس نائمين قمنا مستترين ببناء على أمر رسول الله ، ومشينا إلى مكان محدد نتسلل تسلل القطا مستخفين (١) ..

لكم كانت عجيبة تلك الساعة التي يتسابق فيها بعض الناس إلى إيمان بنبي رفضه قومه ، وحاربوه في وطنه ، وأخرجوه من الطائف والدم يسيل من بدنه عندما رموه بالحجارة ، وقد رفضت جميع القبائل إعطاءه اللجوء والأمان .

في هذه المرحلة الدقيقة اعترفت جماعة من المدينة بصدقه وآمنت برسالته ولبت دعوته ، وعندما نهض أنصار المدينة للبيعة سألهم سائل : هل تدرون على ما تباعون ؟ .. هذه بيعة على هلكة الأموال والأولاد . فقالوا : نعم على هلكة الأموال والأولاد ، وسألوا إن وفينا هذا العهد فما جزاؤنا ؟ .. قال رسول الله : الجنة . قالوا : مد إلينا يدك نبايع على ذلك.

هذه البيعة تعني تسليم النفس بصدق لا شك فيه ، وتضحية بكل نفيس في سبيل حق لم يشدد عوده .. وكان هذا حدثاً عظيماً لم تصافحه عيون السماء إلا مرة واحدة في التاريخ .. لا قبله ولا بعده ..

ترك ما لا يغني ، وعدم التعرض للمسائل غير الضرورية

عندما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الدنيا كانت تلك المسائل موجودة وهي ما نعني بها الآن (المسائل القومية) و (الوطنية)

(١) سيرة ابن هشام (بيعة العقبة الثانية) .

التي تثير الحركات ، وتكون القيادات وتؤثر هذه المسائل على نخبة المثقفين فيهتفون بها ويجعلون منها زعامة ، ويلهبون بها عواطف الشعب ..

لقد كانت هذه المسائل موجودة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه لم يقبل عليها ، ولو أقبل على هذه المسائل القومية والوطنية لما كان ذلك التزاماً بمنهج الله ، ولربما كانت كافة الفرص التي وجدت من خلال عمل استمر ألفين وخمسمائة سنة عرضة للضياع .

لقد استولت الحبشة في عام (٥٣٥ م) على المناطق الحدودية المجاورة لها من جزيرة العرب ، وعلى اليمن ، وكان أبرهة عاملاً للملك الحبشة على اليمن ، وكان طائشاً لدرجة أنه أغار في عام ولادة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على مكة ، وأراد أن يحطم بناء الكعبة .

وقد سقط حكم الحبشة لليمن بعد ما استمر (٥٠ سنة) وتلاه حكم امبراطور الفرس الذي عين (باذان) عاملاً على اليمن ، ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلن نبوته بلغ ذلك الخبر كسرى الفرس ، فأمر عامله باذان أن يقابل ذلك الشخص الذي يدعى النبوة ، وأن ينصحه أن يكف عن دعوى النبوة ، وإذا لم يكف فعليه أن يبعث برأسه إليه « وإلا فأبعث برأسه » (سيرة ابن هشام) .

ويتضح من متابعة هذه الأحداث أن الاحتلال الأجنبي للحدود قد أوجد مشكلات خطيرة .

وفي هذه الظروف كان الطريق مفتوحاً أمام رسول الله أن يلهب مشاعر القوم ضد الاحتلال الأجنبي ، وأن يثير النعرة الوطنية ولو فعل هذا رسول الله كما فعل قادة الأمة الإسلامية وسادتها في هذا العصر لخالف منهج الله ، لأن التخطيط الإلهي كان يقتضي أن يتجنب الرسول طريق

التراع والصدام ، وأن ينهض بمهمة الدعوة المجردة ، مخلصاً وجهه له سبحانه زاهداً في المسائل التي نعتبر عنها بالمسائل القومية ، وقد امثل الرسول للتخطيط الإلهي فكانت النتيجة أن سجل التاريخ أن « باذان » نفسه قد اعتنق الإسلام ، واعتنقه معه معظم المسيحيين من سكان اليمن ، مما يعلمنا أن الهدف الذي قد لا يحققه زعيم قومي بحركة سياسية يمكن أن يتحقق بصورة أوسع وأعمق عن طريق الدعوة .

• • •

وبحدثنا التاريخ أن أبا لهب قد أصبح رئيس قبيلة بني هاشم بعد وفاة أبي طالب ، جرياً على عادة القبيلة ، ومع ذلك فقد رفض القيام بحماية الرسول الهاشمي ، مما ألحأ الرسول إلى طلب حماية القبائل الأخرى .. ومن أجل ذلك ذهب إلى القبائل الكثيرة طالباً حمايتها ، فالتقى برئيس قبيلة تسكن على حدود البلاد اسمه « شيدان بن ثعلبة » طالباً مساعدته فقال له رئيس القبيلة : إن أرضنا متاخمة لأرض كسرى ، ونسكن هذه الأرض حسب شروط أخذها كسرى علينا ، وهي « أن لا نحدث حدثاً ولا نؤوى محدثاً ولعل هذا الأمر الذي تدعو إليه تكرهه الملوك .. » . (سيرة ابن كثير) .

ويتجلى من هذا أن النفوذ الأجنبي لم يحدث مسائل سياسية وقومية فحسب ، بل حال دون الدعوة ونشر الإسلام ، ولكن الرسول مع ذلك لم يتخذ طريق (النضال) بحجة أن الدعوة لا يمكن القيام بها إلا بعد تذليل هذه الصعاب ، وإزاحة العقبات الخارجية ، ولو أنه أثار الكفاح في بادئ الأمر لخالف الخطة الإلهية ، لأن إرادة الله قضت أن يجعل الروم والفرس في حرب وصراع مدة عشرين سنة ، حتى تهلك الحرب

البلدين وتعتصر دماءهما ، حتى يتسمر للمسلمين فتحهما بعد أن يتدربوا على غزوات محدودة مناسبة لقوتهم ، ولو اقتتل المسلمون في طفولة تاريخهم لكانت النتيجة عكسية ، ولم تكن لتظهر الفتوحات الكثيرة المعروفة .

لقد هيا الله أحسن الظروف والإمكانات لينبت النبات طبيعياً على الأرض ، ولم يبق إلا أن يؤدى المسلم واجبه على الأرض لتحويل هذه الإمكانات إلى واقع معاش ..

لقد وضعت العناية الإلهية التربة الخصبة على الأرض .. وإنها تربة لا توجد في مكان آخر في الكون المعلوم .. ولكن مع هذه الخصوبة فإن الثمرة لا تخرج إلا إذا وجدت الرطوبة والمياه .. وبدون هذه المياه سوف تبقى الصحارى فيافى جدياء .

وأنت أيها « الزارع المسلم » عليك أن تعي بحسك الإسلامى هذا ، لأن الطبيعة لن تعان هذه الحقائق بمكبر الصوت ، بل تبينها بإشارات خفية وعليك أن تدرك هذا كله بلغة الإشارة ، فتقوم بزرع البذور في الأرض أو ترويهما ثم تبذر بذورها ، وهذا هو دائماً (طريق الداعى) وطريق الدعوة إن الله خلق أحسن الأوضاع لدعوته في محيط العرب ، ولكن كان من الضرورى أن تراعى الحكمة الربانية في مسيرة الدعوة ، ولو خالفت خطة المسلمين الخطة الإلهية لما فازوا بهذا الانتصار والنجاح ..

• • •

الآخرة غايتنا :

إن المبدأ الأساسى لدعوة الرسول هو إعطاء الأهمية الكاملة لمسألة الآخرة دون أن يجعل أية مسألة من مسائل الدنيا عنواناً للدعوة ..

والسبب في ذلك أن مسألة الآخرة هي المسألة الأساسية والجوهرية للإنسان ، وليست المسائل الأخرى إلا مسائل عابرة وإضافية ، ولا طريق لسعادة الإنسان دون العمل للآخرة ، كما لا طريق لشقائه إلا إهمالها .

ولأن كل نجاح وانتصار في الحياة يتعلق بشخصية الإنسان ، فلهذا كانت الشخصية الحقيقية المستقلة تتشكل بعقيدة الآخرة العميقة التأثير ، حيث إن هذه العقيدة تعني أن الإنسان لا يملك نفسه ولا هو حر في تصرفاته وإنما هو في كل حين يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، فمن شأن هذه العقيدة أن تنزع من الإنسان حريته الحيوانية ، وتقضي على ميوله نحو الإباحية والفوضى الأخلاقية ، وتجعله مقيداً ومسئولاً .

ولو أن مسلماً تتبع آيات القرآن بذهن مفتوح خال من المخلفات والرواسب ، فسوف يرى أن مسألة الآخرة تشغل أكبر حيز من الفكر ، وهي رأس المسائل ، ومن خلالها ذكرت مسائل أخرى ، ولكنها جاءت عرضاً لا أصلاً ..

وثمة مبدأ أساسي آخر يلزمنا للدعوة ، وهو عدم إثارة نزاع مادي بين حملة الدعوة والمدعويين حتى لا يصبح المدعو (فريقاً) و (خصماً) ولو كان ذلك على حساب المصالح الشخصية . وهذا مثال رائع لذلك تقدمه من سيرة الرسول في صلح الحديبية حيث أثارت قريش حرباً ضد المسلمين ، حتى أصبح المسلمون وغير المسلمين فريقيين متخاصمين ، وأخذت أمور التآهب وجمع السلاح والعتاد الوقت كله .

في هذا الوقت قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ما طلبت قريش وأبرم معها معاهدة السلام لعشر سنين ، وكانت هذه المعاهدة في الظاهر هزيمة للمسلمين ، ولذلك نظر بعض المسلمين إلى هذه المعاهدة نظرة

الازدراء ، وحسبوا ذلة ، ولكنها كانت عند الله فتحاً مبيناً ، لأنها مكنت من الانتهاء من جو التوتر ، والتزاع والخصومة ، وبالتالي استؤنفت علاقة الداعي والمدعويين المسلم وغير المسلم .

وما إن أصبح العرب في مكان (المدعو) بدلا من مكان (الخصم) حتى بدأ الإسلام ينتشر بينهم بسرعة ، حتى بلغ عدد المسلمين في غضون سنتين ضعفين ، وغدت مكة التي تعذر فتحها بالحرب مفتوحة للمسلمين بالدعوة . ١١

التسامح والعفو

وجانب آخر نستجليه من دعوته صلى الله عليه وسلم وهو ضرورة الحرص على التسامح والعفو مع المدعو على الرغم من الانتصار عليه ، ونحن نرى أمثلة هذا السلوك المتسامح سائدة في السيرة النبوية ، لقد كانت قريش تحت تصرفه وقبضته بعد فتح مكة ، وقد أذاقوا المسلمين قبل الفتح ألواناً من الظلم والتمسوة ، وعرضوهم لكل شر وبلاء ، ولكن رسول الله لم يعاقب أحداً على جرائم اقترفها في الماضي ، بل عاملهم معاملة العفو والتسامح .. ولما حضرت قريش طائعة قال لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل بعض الناس لشدة فسادهم ، ثم عفا بعد ذلك عن كل شخص طلب العفو منهم ، أو شفع فيه أحد المسلمين

ولقد كان وحشى بن حرب في غزوة أحد قد قتل حمزة عليه السلام وراحت هند بنت عتبة تمثل بجثته ، ولما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك خرجت كلمة تهديد من لسانه في ذلك الحين وهي (لئن أظهرني الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم) (تفسير ابن كثير الجزء الثاني ص ٣٥٢) وقد كانت الجماعة التي أمر الرسول بقتلها تضم من هؤلاء وحشياً وهنداً ، ولكن عندما وصلا إليه ، وطلبا العفو عفا عنهما ، لأن هذه الطريقة في التسامح كانت تلامح منهج الله.

إن مبدأ التسامح والعفو هو عين الحكمة ، فإن الإنسان ليس حجراً فإن الحجر إذا انكسر لا يظهر رد الفعل تجاه الأحجار الأخرى ، وأما الإنسان فهو جزء لا يتجزأ من مجتمع حيوى ، فإذا أصيب الإنسان بضر

أو قدم ظلماً أو عدواناً تثور نائرة الآخرين من حوله ، فتنفشي الأعمال العنيفة والتخريبية .

إن الوقت الذي ينبغي أن يبذل في أعمال البناء بعد الفتح سوف يضيع في مقاومة المفسدين الأشرار ، ولهذا تعامل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعفو مع جميع الأعداء بعد فتح مكة ، وبذلك أغلق أبواب الفساد والأعمال الانتقامية التخريبية . وليس ذلك فحسب ، بل إن معظم هؤلاء اعتنقوا الإسلام ، وأصبحوا مصدر قوة للدين ، ومن أمثلة ذلك عكرمة ابن أبي جهل (١) .

وعندما يستتب الفتح ويتحقق النصر يأتي دور إصلاح الشئون الاجتماعية ولم يتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم طريق الطفرة والصراع بل عالج الأمور بصبر وتأن .

لقد كانت قريش وريثة الدين الإبراهيمي ، ولكنها شوهت صورة الدين الإبراهيمي (الحنيفي) وابتدعت فيه بدعاً كثيرة ، منها ما ذكرناه سلفاً من أمر النسيء أي تأخيرها لأشهر الحج عن شهر ذي الحجة عن انتقاص أحد عشر يوماً من كل عام قمرى .. إلى آخر ما أوردناه سلفاً . ومع ذلك لم يصلح الرسول خلل النسيء بمجرد فتح مكة ، بل صبر حتى استدار الزمان كهيبته ، وصلح الخلل الزمني بتتابع الأيام ، فأعلن الرسول أن هذه هي أيام الحج الحقيقية وسيكون الحج مستقبلاً في هذه الأيام الصحيحة .

ومن هذه الأمثلة يتبين لنا كيف لازم رسول الله الحكمة الربانية وربط دولابه بدولاب سنن الله ، ووافق منهج الله في جميع أعماله ،

(١) وعبد الله بن سعد بن أبي السرح أحد فاتحي المغرب وأولهم .

ولهذا أسفرت جهوده - عليه الصلاة والسلام - عن نتائج عظيمة غيرت مجرى التاريخ .

إننا نستطيع تقسيم تاريخ الدين في التاريخ إلى عهدين كبيرين :
الأول قبل بعثة النبي محمد في القرن الرابع الميلادي .. والثاني بعد بعثته .
وإن الكتب التي نزلت قبل بعثته أقيمت مسئولية حفظها على الأقوام التي أنزلت عليها هذه الكتب ، ولذلك وردت كلمة الاستحفاظ منسوبة إليهم « بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء » (المائدة : ٤٤)
ولكن الله ضمن حفظ القرآن ونسب ذلك إليه : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (الحجر ٩)

وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يهزم الشرك وينشر التوحيد ويحقق هيمنة الفكر التوحيدي في العالم : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » (الأنفال : ٣٩)

فكان المعونة الإلهية تشترط لهذه العلل أن يخلق الله حالة موالية على نحو ما حدث خلال ألفين وخمسمائة سنة .

وقد استغل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الرصيد التاريخي ، فجعل الشرك مغلوباً منهزماً وجعل الفكر التوحيدي غالباً منتصراً .

وبفضل جهود رسول الله وأصحابه أصبح الشرك مغلوباً إلى الأبد ، ولا أمل الآن - بعون الله - في النهوض به واستعلائه كفكر غالب - غير أن التوحيد أيضاً فقد مكانه كفكر غالب في هذا العصر ، وحل محله الفكر العلماني ، أي الفكر الذي لا علاقة له بوجود الله ، وتبوأ الفكر التوحيدي المكان الخلفي .

إن العمل الحقيقي الذي لا يحصى عن الاضطلاع به هو محاولة درء الإلحاد ومحاربه ، ليتبوأ التوحيد المكانة اللائقة به من جديد .

لقد كان الله على علم بأن دوراً جديداً للإلحاد سوف يأتي مستقبلاً ، فتحركت معونته من جديد ، حيث أوجد الله في الألف سنة الماضية حالة تساعد على دعوة التوحيد من جديد ، ولئن بدا أن الإلحاد لا يزال غالباً ومسيطرأ على العقول المفكرة فإن الله قد خلق أحوالاً لو استغلت استغلالاً صحيحاً لعاد التوحيد إلى مكان القيادة من جديد .

لقد تحققت الغلبة للتوحيد في المرحلة الأولى باستعمال القوة كقوله : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » (البقرة : ١٩٣) « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » (الأنبياء : ١٨)

وفي المرحلة الثانية تحقق هذا العمل بالبيان والتبليغ ، كما تشير إلى ذلك الآية القرآنية : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » (فصلت : ٥٣)

الثورة الفكرية

وقد حدثت في هذا الزمان ثورة فكرية .. فما هي هذه الثورة؟؟ .. وللإجابة على هذا السؤال نقول إنه يستعصى استعمال كلمة معبرة عن مدلول هذه الثورة لكننا نعبّر عنها بكلمة « الثورة العلمية » .. وقد أسفرت هذه الثورة العلمية الحديثة ولأول مرة في التاريخ البشري عن تغييرات فكرية تلائم الدعوة إلى التوحيد : ولو استغلت هذه التغييرات لتحقيق بالجهاد القلمي واللساني ذلك المقصد الذي اضطر المسلمون الأوائل في سبيله إلى استعمال السيف .

إن هذه الثورة العلمية الجديدة ليست إلا رافداً أو نتاجاً فرعياً للثورة الإسلامية القديمة ، فإن الله خلق بواسطة الثورة الإسلامية أسباباً أخذت تعمل من خلال التاريخ حتى وصل هذا العمل إلى إحداث ثورة نسميها بالثورة العلمية الحديثة ، كما ذكرنا قبل ذلك .

وبفضل هذه الثورة أصبح ممكناً أن تكون الأشياء والمخلوقات موضوعاً للبحث والتنقيب ، وقد بدأ هذا العمل بشكل أولى في العهد الأول عندما كسفت الشمس ذات يوم فقال البعض : لقد كسفت الشمس لموت ابراهيم ابن الرسول صلى الله عليه وسلم .. فقال الرسول : (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يكسفان لموت أحد ولا لحياته) .

وبذلك نفى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنصر الأسطورة في العلم . والغريب أن هذا التيار الفكري وصل إلى أوروبا منفصلاً عن الدين وسبب ثورة علمية جديدة .. لكنها - نتيجة الموقف الكنسي من العلم - كانت ثورة ملحدة . ومع ذلك فقد كانت أكبر فائدة لهذه الثورة أنها أزالَت عهد الأوهام والخرافات القائمة على الفروض والقياسات بدلا من الحقائق (فمثلا اعتقاد أن الشمس والقمر يكسفان لوفاة إنسان .. وهم) .

وقد كانت الخرافات أكبر عقبة في سبيل اعتناق الإسلام ، فإن المؤمن بهذه الخرافات لا يستطيع أن يميز بين الإسلام وغير الإسلام ، بل يعتقد على أساس الفروض المسبقة وبدون دليل أن أحدهما صحيح والآخر باطل . فمثلا يقف الإسلام كدين موثوق به تاريخياً ، ولكن جميع الأديان الأخرى لا تمسند إلى قوة تاريخية ، ولكن الإنسان الذي عاش عهد الأوهام ، لا يولى هذه الحقيقة أى أهمية .. بينما وقف العهد الجديد موقف التأيد للحمجة التاريخية ولاعتبار الصحة التاريخية ولذلك برز إلى حيز الوجود

فن جديد يدعى (النقد الأعلى) « Higher Criticism » وبموجب هذا الفن الجديد برهنت هذه الحقيقة على أن الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذى يحظى باعتبار تاريخى حيث تفقد الأديان الأخرى الاعتبارية التاريخية .

ولقد حاولت العقلية العلمية كشف الكون فى ضوء التجربة والمشاهدة وبالتالى كشف القناع عن حقائق طبيعية تؤيد تعاليم الإسلام من منظور علمى ، فمثلاً كشف العلم الحديث أن قانوناً واحداً للطبيعة يسيطر مفعوله على الكون كله ، وأن هذا القانون الذى تخضع له الأرض تخضع له سائر الأشياء فى الكون ..

ويثبت لنا هذا أن خالق هذا الكون واحد ولا مجال لإلهين أو أكثر وقد ثبت أن الفلسفة القديمة كانت عقبة علمية أمام قبول دين التوحيد على امتداد التاريخ ، وكانت الفلسفة تنبؤاً مكانة العلم الغالبة فى قديم الزمان . وقد كانت تمثل الأرضية الفكرية لجميع المثقفين ، وعلى ذلك الأساس كان تفكيرهم ، فكانت الفلسفة عقبة فى سبيل الاعتراف ببدء التوحيد .

كانت الفلسفة تستهدف منذ قديم الزمان البحث عن الحق ، ولكن الواقع أن الفلسفة رغم تاريخها الطويل الذى يمتد إلى خمسة آلاف سنة ، منيت بالفشل الذريع فى الوصول إلى الهدف المتوخى ، والسبب فى ذلك أن الفلسفة لم تستطع أن تؤمن بمحدودية الإنسان .. لقد حاولت ارتياد آفاق لا نهائية مع أن الإنسان لا يستطيع أن يبلغ إلى آفاق لا نهائية ، من جراء محدوديته .

لقد حاولت الفلسفة ذلك قرونًا طويلة .. ولكن بدون جدوى ...

إن العقائد الأساسية التي يقوم عليها دين التوحيد ، حقائق معلومة ومشاهدة بطريقة أكمل للإنسان .. مع أنها « حقائق غيبية » وإن الإنسان بسبب قدرته المحدودة لا يستطيع أن يدرك تلك الحقائق . وإن أكبر عمل أداه العلم الحديث من الناحية الدينية هو أنه اقتلع هذه الفرضية من جذورها وبرهن على أن قدرة الإنسان محدودة ، وأنه لا يستطيع أن يدرك الحقيقة بكاملها .

إن الأرض الفكرية التي خلقها الفلسفة القديمة أصبحت فكرة (دفاعية) وإن الأرض الفكرية التي عثر عليها العلم الحديث أصبحت فكرة (هجومية) في العالم العلمي .

إن هذه الثورة التي حدثت في العقول مهدت السبيل لدين التوحيد . وإن فكرة المحدودية تحظى ولو بطريقة غير مباشرة بتأييد علمي ، ولا مناص للإنسان من أن يعترف بما يخبره به الرسل لإدراك الحقيقة العليا ، وقد أصبحت مقولة أنه لا إيمان إلا بالمشاهدة، مقولة مجردة من النظرة العلمية ، وينسحب هذا على القول بأننا لن نؤمن بالآخرة والوحي والإله ما لم نشاهدها بأعيننا في وضوح النهار .. إن كل ذلك يخالف للعلم الحديث ، فإنه لأول مرة في التاريخ المعلوم حدث أن العالم الإنساني أثبت بنفسه أن (علم الإنسان محدود) وأنه سيظل (محدوداً) ، فإن الإنسان عندما يحاول فهم الكون فسيفكشف له أن الكون أكثر تعقيداً من أن يحيط به عقاه .

إن الفهم العلمي مهم جداً من ناحية الفكرة الإسلامية لأن أهمية الرسالة تثبت بذلك ، فإن الإنسان من جهة يريد الوقوف على حقيقة الكون ، ولكنه من جهة أخرى لا يستطيع - ولن يستطيع - أن يدرك الحقيقة إلى آخر مداها بسبب محدوديته ... إن هذا الفراغ الموجود في الحياة الإنسانية يدل على أن الإنسان يحتاج إلى مرشد أعلى ، وبتعبير آخر :

إن هذا الاعتراف الذى أثبتته العلم أكد ضرورة الرسل والرسالات السماوية للإنسانية كلها ..

لقد كان الإنسان محروماً من حرية إبداء رأى ، والسبب فى ذلك أن السلاطين والأباطرة قد أصبحوا موضع القداسة ... إن الرجال الذين يصلون إلى مكان أعلى ، كان الناس يحسبونهم مقدسين ويحيطونهم بهالة من القداسة والتعجيد ، وكان رأيهم هو المقدس ، وكان لهم حق أن يفرضوا آراءهم ورغباتهم على الآخرين . ولكن ثورة التوحيد قضت على طغيان الإنسان على أخيه الإنسان ، وأعلنت أنه لا فضل لإنسان على آخر إلا بالتقوى ومن هذا المنطلق ظهر تيار فكرى اكتمل اكتمالاً سياسياً عندما وصل إلى أوربا ، فنشأت حركات تقول بأن الناس سواسية ، وتم الاعتراف بهذا الحق الإنسانى ، كما اعترف بحق الناس فى التعبير عن أفكارهم بحرية .

ولأول مرة فى التاريخ أصبح من الممكن لإنسان أن ينشر دين التوحيد ولا يخاف من البطش والقبض (١) . ولقد كشف العلم للإنسان نعماً مادية أودعها الله هذا الكون ، وكانت مخبئة عن نظر الإنسان ، ومن أهمها (من ناحية الدعوة) وسائل المواصلات بما فيها من المطابع والإذاعات المرئية والسمعية ، والمواصلات الحديثة السريعة مثل القطارات والسيارات والطائرات (والتلكس والهاتف) .. إن هذه المخترعات نعمة يمكن أن تخدم الإسلام من حيث استعمال وسائل المواصلات والنقل الحديثة لنشر الدعوة الإسلامية على صعيد عالمى .

إن هذه الفرص الغالية التى ظهرت خلال جهد دام ألف سنة فى التاريخ إنما هى فرصة للإسلام والمسلمين الآن ، فكما خلق الله أوضاعاً مواتية

(١) لعل هذا صحيح فى دول العالم الحر وبعض الدول الأخرى (المراجع) .

فى الماضى لغلبة الإسلام الأولى بعمل دام ألفين وخمسمائة سنة ، كذلك خلق الله فى هذا العصر أوضاعاً مواتية بعمل دام ألف سنة تمهيداً لغلبة الإسلام مرة ثانية ، غير أن هذه الأوضاع والأحوال لا تستطيع أن تتحول إلى واقع ملموس بدون جهد دءوب ومحاولة مخلصـة .. ولأجل تحويل هذا الإمكان إلى واقع ، لابد من أن تظهر ثلـة من الرجال الإيجابيين .. وإذا ظهر هؤلاء الرجال — فإن الإسلام سينال الغلبة الفكرية فى المستقبل المنظور من جديد كما سبق له أن نال الغلبة الفكرية على الشرك فى القرن الأول

إن هذه الإمكانيات التى ذكرناها آنفاً لتتـرب جماعة تستغلها فى تحقيق هيمنة الإسلام فكرياً . ولكن لتعاسة الحظ لم تظهر حتى الآن أية جماعة تنهض بهذه المسئولية . ومما لامرأ فيه أن القرن الماضى قد شاهد خروج جماعات وحركات لا تحصى ، ولكن هذه الحركات كلها ظهرت كرد فعل للأحوال الطارئة ، ولا سيما الأحوال السياسية .

إنها لم تظهر بدافع الشعور الربانى الذى ظل يتفاعل على مدى الألف سنة الماضية ، والذى بلغ مداه خلال القرن الرابع عشر الهجرى .

لقد ورد فى كتب السيرة أنه فى موقعة بدر عندما جرت المـلحمة بين أهل الكفر الأقوياء وأهل الإيمان الضعفاء ، خر رسول الله صلى الله عليه وسلم ساجداً على الأرض لفرط العاطفة الإيمانية ، ودعا الله أن ينصره فى هذه الآونة الحاسمة ، وقد سجل التاريخ كلمة ترددت على لسانه صلى الله عليه وسلم ، هى : (اللهم إن تهلك هذه العصابة فـلن تعبد بعدها فى الأرض) .

لقد كانت هذه الكلمة تعبيراً عن الحقيقة دون مبالغة ، فمما لا شك فيه أن هذه الأرواح المؤمنة التى لا تتجاوز (٣١٣ نسمة) فى بدر ،

لم تكن نموذجاً للعامة من النوع البشرى ، بل كانت هذه العصاة هي الجماعة التي انتهت إليها مسيرة تاريخ بلغ ألفين وخمسمائة سنة ..

ولنا أن نقيس على ذلك أن هذا العصر يحتاج إلى عصاة جديدة تراث (من ناحية الشعور) تاريخ ألف سنة خلت .. ومن ناحية العمل والأخلاق تصمم على تحويل هذه الإمكانيات إلى أرض الواقع ، ومن ناحية الجسد والإخلاص تصل إلى درجة لا ترعز عنها أية زلزلة من مكانها .
عندئذ نكون قد ربطنا (دولابنا) بسنن الله وأصبحنا أهلاً لنصره وعونه

أصحاب الرسول كيف كانوا؟

لقد ورد في القرآن قوله تعالى :

« فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ »
(البقرة : ١٣٢)

يتبين من هذه الآية أن أصحاب الرسول ليسوا إلا مسلمين يمثلون نماذج حقيقية للحق .

إن الإيمان الذي ينال درجة الاعتبار عند الله هو الإيمان الذي يشبه إيمان الصحابة ، وأى نوع من الدين والإيمان يختلف عما كان عليه الصحابة لا براءة له من الله .

وفي هذا المقام الوجيز نسرد بعض سمات الصحابة وخصائصهم :

أولا : لقد أحب الصحابة الدين أكثر من كل شيء :

لقد ذكر القرآن هذه الميزة من مزايا أصحاب الرسول فأخبر أن الدين أصبح عندهم أحب وأثمن من كل شيء وأن الحب الشديد يعتبر درجة أعلى وأسمى في العلاقات ، فإذا تعلق قلب الإنسان بشيء لدرجة الحب أصبحت هذه العلاقة بديلا عن كل نقص أو حرمان ، وتحرك عقل الإنسان له ، وأدرك كل أمر يحبه بدون إرشاد أو تعليم ، إنه يعمل من تلقاء نفسه لمشيئة المحبوب ، ويعرف بنفسه ما لا ينبغي له أن يعمل دون أن يزود بخارطة عمل .

إن أصحاب الرسول لم يكونوا أناسا غير عاديين ولم يكونوا مخلوقات فوق الإنسان ، بل كانت خصيصة أنهم أحبوا الدين أكثر مما أحبوا أنفسهم . إن الصحابي العادي في ذلك الزمان لم يكن يهتم ببناء مستقبله ، ولكن كان يهتم مستقبل الدين ، وكما أن العادي يبذل ماله في أموره الذاتية ، كان الصحابة يبذلون أموالهم في سبيل الدين ، وبفضل هذه السمة العظيمة سجلهم التاريخ كجماعة أحلت الإسلام محل الانتصار الأسمى والأعلى .

ثانياً : عرفوا الرسول قبل شهادة التاريخ له :

وميزة أخرى تبعث على التأمل والدهشة .. إنهم عرفوا رسولا معاصراً لهم وانضموا إليه .. وهذا الأمر من الصعوبة بمكان إلى درجة أنه لم يسبق نظير لهذا الواقع على مستوى الجماعة الكبيرة ، وقد شهدت الأزمنة القديمة في جميع أطوارها أن الناس استهزءوا برسولهم وكفروا بهم ، وقد جاء في « الكتاب المقدس » : (إنكم ازدرئتم رسلي) . ومن كان هؤلاء المزدرئون؟ إنهم كانوا يؤمنون بالوحي والرسالة ، وإنهم كانوا أصحاب تكايا وزوايا باسم الأنبياء ، وكانوا يحتفلون احتفالات دينية كبيرة ، ولكن كل هذه النشاطات كانت باسم الأنبياء الأقدمين ، وأما نبي الزمان فلم يكن نصيبه منهم إلا الاستهزاء والازدراء .

لقد كفر اليهود بالمسيح عليه السلام رغم إيمانهم بموسى عليه السلام ، وكفر النصارى بمحمد صلى الله عليه وسلم مع أنهم كانوا يحيطون المسيح بالتجلة إلى درجة العبادة ، وكذلك رمت قريش الرسول صلى الله عليه وسلم بالحجارة وأخرجته من مكة مع أنهم كانوا يفتخرون بأنهم ورثة إبراهيم .

والسبب في ذلك كله هو أن نبوة الأنبياء الأقدمين تغلو نبوة ثابتة لكونها مصحوبة بوقائع التاريخ الطويل ، حتى لا تكاد تنفك عن التراث

القوم لقوم أو جماعة . فإن النبي الذي يبعث في قوم يكون بطلا من الأبطال للأجيال القادمة . فيكون الإيمان به مرادفاً للاعتداد بالتراث القومى فمن ذا الذى لا يؤمن بذلك النبي ؟ .. ولكن نبوة نبي الوقت تكون مثاراً للجدل والتزاع وتكون ستائر الالتباس مسدولة عليه ، ويضطر الإنسان للإيمان به إذا نظر إلى الحقيقة من وراء الستار : ولا يؤمن به إلا ذلك الشخص الذى دفن أنايته ، ويكون بذل الأموال فى سبيله بذلاً فى سبيل أمل لم تتحقق مصداقيته التاريخية .

ولكن هؤلاء الصحابة الكرام كانوا أناساً آمنوا برسولهم المعاصر ، كما يؤمن الناس بالرسول الأقدمين .

ففى غزوة الخندق وقد اشتد الحصار ولم تتوافر المطالب الأساسية قال واحد من المسلمين من شدة المعاناة : « كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط » (سيرة ابن هشام ، الجزء الثانى ، ص ١٤٤) . وكان وعد الرسول فى وقت غزوة الخندق (عندما قال هذا الرجل قولته) وعداً لا يتجاوز الكلمة ، ولكن الوعد أصبح الآن وعداً منجزاً متحققاً ، لقد آمن الصحابة بهذا الوعد قبل أن يتحقق وآمنوا بالرسول قبل أن يؤكد التاريخ صدق وعده ، ولكننا نؤمن بهذا الرسول بعد أن صدقه التاريخ .. والبون واسع بين الإيمانين ، ويختلف كل واحد منهما عن الآخر اختلافاً لا نهاية له ، أما فى هذا العصر فليس المسلم وحده ، بل إن الكافر المنصف لا يسعه إلا أن يعترف بأن محمداً كان أكبر شخصية على امتداد التاريخ ، ولكن هذا الاعتراف فى حياته صلى الله عليه وسلم كان من أصعب الأمور ، ومن اعترفوا به كانوا من عجائب الناس ، وقد حالفهم التوفيق .

ثالثاً : آمنوا بالقرآن في عهد الصراع :

ذكرت كتب السيرة أن أصحاب الرسول كانوا يأخذون ما تم نزوله من القرآن ويأتون به الناس ويتلون عليهم الآيات .. وكانت هذه هي طريقة الدعوة التي اتبعها أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا ليس أمراً يبعث على الإعجاب عند الإنسان المعاصر .. ولكن إذا رأيته من منظور العهد الماضي فستندهش وتستيقن أن هذا أمر لم يسبقه ولم يعقبه نظير في التاريخ على مستوى الجماعة .

إننا عندما ننطق بكلمة « القرآن » الآن ونعني به كتاباً سجل التاريخ إعجازه على مدار القرون الأربعة عشر . ويؤمن به مئات الملايين من الناس فإن الانتماء إلى هذا الكتاب أصبح الآن أمراً يبعث على الفخر والاعتزاز ، ولكن القرآن لم يحتل هذا المكان من الاحترام في بداية نزوله ، وكان ثمة أشخاص يتقولون أن محمداً ألف هذا الكتاب بلحمة الحكايات والقصص وسداها ، وبإمكاننا أيضاً أن نفعل ذلك « لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين » (الأنفال ٣١) وكان ثمة أشخاص يقولون أن محمداً يملك بعض الأحاديث ويردها صباحاً ومساءً « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً » (الفرقان ٥)

فإن معرفة القرآن وقت نزوله إنما هي إطلاقة على المستقبل في زمان الحال وإنما هي اعتراف بحقيقة قبل أن تثبت للجميع ، وفي هذه المرحلة كان من الصعب جداً أن يقدم هذا الكتاب ككتاب دعوة لأن ذلك يقتضى التفاني في عظمة الله والاعتراف بشخصية الرسول وإنكار الذات .. إنه الاعتراف بشخصية لم تلمع بعد في أفق التاريخ .

عندما أسلم لبيد الشاعر العربي الشهير تخلى عن الشعر ، ولما سئل لماذا عزفت عن الشعر ؟ .. أجاب : « أبعد القرآن ؟؟ .. ففى وقتنا هذا

عندما يترك شخص قرض الشعر ويقول هذه الكلمة فإنه يحظى بدرجة من السمعة والشعبية ، ولكن شتان بين هذا القول في هذا الزمان ، وبين القول الذى قاله (لبید) وقت نزول القرآن .

إن هذه هى الحقيقة التى تعرض لها القرآن فى هذه الآية :
« لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا » (الحديد ١٠)

رابعاً : أنفقوا أموالهم فى سبيل دين لم يظهر دوره بعد :

روى ابن أبى حاتم قصة صحابى فى الكلمات الآتية :
« عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له » (الحديد ١١) قال أبو الدحداح الأنصارى : يا رسول الله : إن الله يريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح . قال : أرنى يدك يا رسول الله . قال : فناوله يده ، فقال : إني قد أقرضت ربى حائطى وله حائط فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها . قال : فجاء أبو الدحداح فناداها : يا أم الدحداح .. قالت : لبيك . قال : اخرجى فقد أقرضته ربى عز وجل . فقالت له : ربح بيعك يا أبا الدحداح . ونقلت منه متاعها وصبيانها ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كم من علق رواح فى الجنة لأبى الدحداح » (تفسير ابن كثير ، المجلد الثالث ٤٤٨) .

هذه قضية نموذجية تدلنا على أن الصحابة كانوا فرحين بتقديم التضحيات فى سبيل دين آمنوا به ، ولنستعد إلى الذاكرة أن هذا الحدث كان قبل أربعة عشر قرناً ، وليس من الغريب أن أنفق شخص مثل هذا الإنفاق فى هذا الزمان ، فإنه ينال من الاحترام والتقدير بحيث يعود عليه إنفاقه

بمثل الذى أنفقه أو أكثر ، ولكن الأمر كان مختلفاً فى زمان الصحابة ، فإن بذل الأموال فى سبيل الدين فى ذلك الوقت كان مما يثير الناس عليه ويستعليهم ضده فيلقبونه بالمجنون ، ولكنهم كانوا يفعلون ذلك لأنهم دفنوا ذواتهم تحت حجارة أساس هذا الدين ، وإن تأثير هذا الدين الناشئ الغريب كان مغامرة ، لأن صدقه كان أمراً مشتبهاً فيه ، فإن التاريخ الرائع لهذا الدين لم يكن قد ظهر إلى الوجود بعد .

خامساً : آثروه على أنفسهم حتى فى السيادة

كان عبد الله بن أبى شيخ المنافقين من دهاة العرب ويتمتع بنفوذ كبير فى المدينة ولما أراد أهل المدينة حسم جميع خلافتهم ودعم وحدتهم ، انتخبوا عبد الله بن أبى ليجمعاهو ملكاً عليهم ويلبسوه تاجاً رمزاً لاعتراฟهم به ملكاً ، وكما يقول ابن هشام : « فأما عبد الله بن أبى فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم » (سيرة ابن هشام الجزء الثانى ص ٣١٦)

ولم يكده ينتهى عمل التتويج حتى وصل الإسلام إلى المدينة وشهد أهل المدينة بصدق هذا الدين ، وجاس الإسلام خلال الديار ، ثم وصل وفد من أهل المدينة إلى مكة واستمع إلى الرسول واستشعر أعضاء الوفد أن محمداً صلى الله عليه وسلم يمثل أحسن شخصية لإدارة الحياة الاجتماعية بالمدينة ، فعرضوا عليه نيابة عن جميع أهالى المدينة السيادة على المدينة .. هذا الواقع الذى سجله التاريخ بعنوان « بيعة العقبة الثانية » .

لم يكن ذلك الواقع حدثاً هيناً بل إنه يرادف وضع الإنسان (تاج نفسه وعرشه) على رأس شخص آخر غريب عنه . ويندر نظير هذا الواقع فى الحياة القبلية القديمة .

إن انتخاب سيد وزعيم من خارج القبيلة ، والقوم لا يزالون يعتبرون ذلك من الصعوبة بمكان ، كان أصعب بكثير في قديم الزمان منه في عصرنا فإن هذا الواقع عندما حدث لم يكن محمد محاطاً بهالات التمجيد والإجلال بل كان محمد آنذاك شخصاً أخرجته قومه من وطنه ، ولم يقترن به مجد الآماد والعصور ، وكان شخصاً أثّر حوله الجدل والنزاع ، كان مسلوب البيت والمتاع ، فكان الانضواء إليه يعنى الحرمان من كل شيء والحصول على خصومة القوم وعداوتهم . لقد أصبح من الميسور في القرن العشرين لأى « برنارد شو » أن يعرض قيادة أوربا على محمد رسول الإسلام ، ولكن كان من العسير تماماً في القرن السادس الميلادى الاعتراف برسائله وقبوله كإمام وأمير وزعيم .

سادساً : عرفوا حدودهم :

كان من عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يشاور أصحابه في دقيق الأمور وجليلها ، فكلما جد أمر يجمع أصحابه ويقول : أشيروا على أيها الناس . ومع أن هذه مشورة صريحة ، لكن الناس كانوا يظلون صامتين حتى يقوم أبو بكر ويبدى رأيه في موجز من القول ثم يجلس ثم يقوم عمر ويعرب عن رأيه ، ثم يجلس .. ولا يتكلم إلا عدد قليل من الناس فيتم القرار بإجماع الآراء ، وجرت هذه العادة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجمع أبو بكر الناس ويستشيرهم فيخيم الصمت حتى يقول عمر شيئاً فيقول بعض الصحابة من أراد منهم أن يقول ومن ثم يتقرر الأمر بالإجماع ، وبعد عمر رضى الله عنه تزايد المسلمون من غير الصحابة وتغيرت العادة ..

إن هذه العادة عادة بسيطة في الظاهر ، ولكن لا يوجد مجتمع في

التاريخ نهج هذا النهج ولا يمكن العمل وفق هذا النهج إلا إذا أصبح المجتمع مدركاً لحدوده ، ويعترف فيه الرجل بكمال غيره وعجز نفسه ، ويرى نفسه بنظرة واقعية أنه محدود للغاية .

أضف إلى ذلك أن أبا بكر وعمر لم يكونا الشخصين اللذين عرفناهما في التاريخ الآن ، إنهما كان آنذاك معاصرين للمسلمين .. بكل طبيعة المعاصرة ومع ذلك فجيل الصحابة وحده هو الذى استطاع تجاوز هذا الحجاب الصعب حجاب المعاصرة ، وقد سجل أصحاب الرسول هؤلاء أنهم الذين سجلوا هذا التفرد الذى لا قياس له في التاريخ .

سابعاً : تساموا عن الحقد والبغض :

في غزوة ذات السلاسل بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً كتيبة تحت قيادة عمرو بن العاص . ويقع هذا المكان في ضواحي الشام ، فلما قدم عمرو بن العاص يستفسر عن أحوال العدو ظهر له أن كتيبته الصغيرة لا تكفى لجيش العدو الكثير ، فأرسل شخصاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره أن الجنود المسلمين قليلون وهم في ميسر الحاجة إلى مدد عسكري فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتيبة أخرى مؤلفة من مائتي شخص وعلى رأسها أبو عبيدة بن الجراح .

ولما التقت الكتيبتان وانضما في كتيبة واحدة أثير الخلاف حول من يكون الأمير ، فقال عمرو بن العاص : إن الكتيبة الأخرى أنت لنجدة الكتيبة الأولى فأنا الذى أكون أميراً للجيش المؤلف من الكتيبتين ، وخالفه أبو عبيدة بن الجراح ورأى أنه يستحق الإمارة للجيش وإلا فيمكن أن يكون هناك أميران : أمير للكتيبة الأولى وأمير للكتيبة الثانية .. ولما اشتد الخلاف قال أبو عبيدة بن الجراح « تعلم يا عمرو أن آخر ما عهد إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال : إذا قدمت على صاحبك فتطاول ولا تختلف وإنك والله إن عصيتني لأطعتك » (رواه البيهقي وابن عساكر)
(سيرة ابن كثير ، ص ٢٩٩) .

وكان خالد بن الوليد شجاعاً بأسلاً يتمتع بموهبة عسكرية نادرة ، قاد الأفواج الإسلامية الظافرة منذ زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خلافة أبي بكر ، ولكن عمر كان يكره بعض عاداته ، فأشار على أبي بكر أن يعزله من الإمارة ، فلم يصغ إليه أبو بكر ، ولكنه بلغ من إصراره إلى حد أنه لما استخلف عزل خالد بن الوليد من منصبه وجعله جندياً عادياً .

وكان خالد بن الوليد عندئذ يجاهد في المعركة ، خلال فتح الشام ، فسله أبو عبيدة بن الجراح رسالة من عمر بن الخطاب يأمره بالتخلي عن القيادة ، ثم اجتمع عدد من رجال الجيش في خيمة قائدهم خالد ابن الوليد واستحثوه على عدم الإطاعة ، فأجابهم خالد بن الوليد :
(إني لا أقاتل في سبيل عمر ولكن أقاتل في سبيل رب عمر) إنه كان يقاتل من حيث كونه قائداً للجيش وسيقاتل من الآن كجندي عادي .

ولا يمكن أن يصل الإنسان إلى هذه الشخصية إلا إذا تسامى عن المقت والتذمر والحققد ، وعاش في الله لا في مطامع البشرية الحقيرة .

ثامناً : نصرخوا الدين أكثر مما بايعوا عليه :

لما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر شعبان (٢ هجرية) أن جيشاً مؤلفاً من ألف جندي مقاتل يتجه نحو المدينة ، ويقوده أعلام قریش ، ويتألف هذا الجيش من ستمائة جندي مدرع ومائة فارس ،

جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرين والأنصار في المدينة ، واستشارهم في الخطوة التي يمكن اتخاذها ، فقام بعض الأشخاص من المهاجرين حسب المعتاد وقالوا : يا رسول الله امض لما أمرك الله .. فوالله لن نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن نقول لك : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

ولكن رغم هذه الكلمات التي أدلى بها رجالات المهاجرين طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى الأنصار ، بقوله : (أشيروا علي أيها الناس) . فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله كأنك تشير إلى ؟ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم . فقال سعد بن معاذ : فامض بنا لما أمرك الله إنك لو أمرتنا أن نخوض البحر لنخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد .. وسوف ترى منا ما تقر به عينك .

وقد تقرر بعد هذا الحديث الخروج من المدينة لمناهضة الكفار ، والسبب في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل الأنصار أكثر من مرة أشيروا علي أيها الناس (موجهاً إلى الأنصار) يرجع إلى ما رواه ابن هشام في قوله : « وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف ألا ترى الأنصار عليها نصرة إلا إذا دهمهم العدو بالمدينة ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو بعيد عن بلادهم » (سيرة ابن هشام الجزء الثاني ، ص ٢٥٣) . فلم يكن الأنصار ملتزمين وحسب بما بايعوا عليه ، بل خرجوا ٨٠ ميلاً بعيداً عن المدينة ، وهكذا فلم يعتذر الأنصار وأوفوا أكثر مما بايعوا ، وضحوا بأموالهم وأرواحهم في موقعة بدر الخالدة .

(م ١١ - قضية البعث)

تاسعاً : التركيز على الهدف والابتعاد عن الاختلاف :

« أخرج الطبراني عن المسور بن مخرمة قال : خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أصحابه فقال : إن الله بعثني رحمة للناس كافة فأدوا عني ، رحمكم الله . ولا تختلفوا كما اختلف الخواريون على عيسى بن مريم فإنه دعاهم إلى مثل ما أدعوكم إليه ، فأما من بعد مكانه فكرهه ، فشكا عيسى بن مريم ذلك إلى الله عز وجل ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : نحن يا رسول الله نؤدى إليك فابعثنا حيث شئت » .

إن الاختلاف دائماً يعوق سبيل العمل الاجتماعي ، ولكن خشية الله ملأت قلوب الصحابة ، حتى نسوا وتناسوا الخلافات ، ووقفوا أنفسهم على أداء واجبهم ، ونشروا رسالة الإسلام في البلاد العربية وفي خارجها ، كما أمرهم رسول الله ، وبعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعكفوا على إحراز المال والمنصب ، بل انتشروا في مختلف الأصقاع فكان كل بيت صحابي يمثل (مدرسة صغيرة) حيث كان يعلم الناس لغة القرآن ويشرح كتاب الله وسنة رسوله . وفي الوقت ذاته كانت جماعة من المسلمين قد انصرفت إلى الفتوحات والإدارة السياسية ، ولكن معظم الصحابة انصرف عن الشؤون السياسية إلى نشر الدين ، واستغلال الجو الناجم عن الفتوحات الإسلامية ، وبفضل جهود هؤلاء الصحابة ومن جاء بعدهم من التابعين إلى أكثر من خمسين سنة خرج إلى الوجود ما نسميه الآن « العالم العربي » حيث لم يغير الناس دينهم فحسب بل غيروا لغتهم وثقافتهم وحضارتهم .

عاشراً : اقتنعوا بالحلوس في مقعد خلفي :

وعندما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أثرت أول ما أثرت مسألة الخلافة ، اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ، وكان سعد بن عبادة

من أبرز سادة الأنصار ، فرأى بعض الأنصار أن يحكم عليهم سعد بن عباد ة ولما علم المهاجرون أسرع رجالهم إلى ذلك المكان ، وخطب أبو بكر رضى الله عنه بهذه المناسبة فقال :

« أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش .. هم أوسط العرب نسباً وداراً ، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين (عمر أو عبيدة بن الجراح) فبايعوا أيهما شئتم » (سيرة ابن هشام ، الجزء الرابع ، ص ٣٣٩) .

ثم قام عمر وبايع فوراً أبا بكر بيعة الخلافة ثم بايع الباكون من المهاجرين ثم بايع الأنصار على يد أبي بكر ، وكان الأمر شاقاً على فئة من الأنصار إلى حد أن قال أحد منهم للمهاجرين : « قتلتم سعد بن عباد ة » .

كان الأنصار أولئك الذين نذروا أنفسهم للإسلام وقدموا تضحيات لا تقدر ولا تحصى ، وحموا قافلة الإسلام حينما أخرجت من ديارها ، ولكنهم رضوا بأن لا يكون لهم نصيب فى السلطة والحكم .. ورضوا بأن ينتخب الخليفة من المهاجرين فقط ، ولا شك أن ذلك هو سداد الرأى والحكمة ، لأن قريشاً توالى فى يدها سيادة العرب طيلة القرون العديدة ، ولو كانت السلطة قد فوضت والحالة هذه إلى غير قريش لاختل النظام ، وأصبح من المستحيل القبض على دفة الحكم ، فكان هذا من رفعة الأنصار وواقعيتهم ، حيث أدركوا هذه الحقيقة واقتنعوا بالتخلى عن الحكم والسيادة ولكن هذا النوع النادر من الواقعية يندر نظيره فى تاريخ العالم .

أحد عشر : أعطوا الأمور قدرها وحقها :

كانت غزوة أحدٍ من أشد الغزوات ضراوة حيث وثب شباب قريش بغيظهم على المجتمع الإسلامى الحديث الناشئ وثوب الليث المصور على

فريسته ، فكانت الدماء مسفوكة في ساحة الحرب ، وفي الوقت ذاته أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه وتساءل : من ذا الذي يأخذ هذا السيف بحقه ؟ .. فأقبل عليه بعض الناس ولكنه لم يمنح أحداً سيفه ، ثم أقبل أبو دجانة وسأل : يا رسول الله ما حق هذا السيف ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « أن تضرب به العدو حتى ينحني » فقال أبو دجانة : أنا آخذه يا رسول الله بحقه ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه . ومشى أبو دجانة بسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم مشية متفاخر طرب على هذه الثقة التي نالها من رسول الله ، فلما رآه رسول الله قال : « إنها مشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن » .

وقد شد أبو دجانة على رأسه قماشاً أحمر ، دليلاً على أنه لا يبالي الموت وقاتل بشجاعة بالغة ، فلم يواجهه شخص إلا ولقى مصرعه ، وبعد ذلك وقع أمر يحكيه أبو دجانة فيقول :

« رأيت إنساناً يحمش الناس حمشاً شديداً فصمدت له فلما حملت عليه السيف ولول ، فإذا امرأة فأكرمت سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أضرب به امرأة » (سيرة ابن هشام الجزء الثالث ، ص ١٤) . ويروى صحابي آخر ذلك فيقول : إني رأيت أبا دجانة « قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة ، ثم عدل السيف عنها » وكان من تعاليم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجهاد أن لا تقتل امرأة (١) ولا يقتل الصبيان ولا الضعفاء . ولم ينس أبو دجانة هذا التعليم حتى في غمار الحرب ، وأمسك بسيفه بعد أن أطلقه .

ويتضح من هذا الأمر كم كان أصحاب الرسول بمسكون عنان عواطفهم

(١) إلا أن تكون محاربة أو مساعدة على عمل حربي مباشر (المرجع)

وإن جميع عواطفهم كانت تمارس بمنطق الشعور بالمسئولية لا بمنطق العواطف وكان باستطاعتهم أن يلتزموا الهدوء والتحكم في النفس ، حتى في وجه الاستفزاز وإلهاب العواطف .. وكان بإمكانهم أن يبدلوا رأيهم ولو وصلوا إلى منتهى الغضب ولا مراء في أن هذا الأمر ميسور قولاً ولكنه من أشد الأمور عملاً ، ولا يوفق إليه إلا من خشى الله واستحضر مراقبة الله له ..

اثني عشر : ارتقوا ارتقاء الشجرة :

لقد ورد في القرآن مثلاً من الإنجيل والتوراة ، فمثل التوراة يختص بميزات الصحابة الذاتية ، ومثل الإنجيل يبين ميزاتهم الاجتماعية .

يقول القرآن في وصف الصحابة :

« ومثلهم في الإنجيل كزراع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا » (الفتح - الآية الأخيرة) .

وقد ورد في الإنجيل هذا المثل في هذه الكلمات : وقال إن ملكوت الله كشخص بذر بنوره في الأرض ، وينام في الليل ويظل يقظاً في النهار وينمو البذر وهو لا يعلم أن نبات الأرض ينبت تلقائياً .. الورق ثم السنبلة ثم الحبة في السنبلة .. وفي حين نضجت الحبة يسرع المزارع ليحصد بالمنجل فقد أصبحت المحاصيل جاهزة . (مرقس : ٣٢ - ٣٦)

فأخبر القرآن والإنجيل أن الارتقاء الاجتماعي لأصحاب الرسول يكون مثل الشجرة تكون البداية من البذر ثم ينمو البذر حتى يستوى على سوقه فيتحول إلى شجر غرض مزدهر تدريجياً يعجب به الزراع ويغيظ بهم الكفار .

لقد كتب الله أن يتطور الإسلام تطور الشجر ، وقد تحقق هذا المشروع على يد أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن لم يكن ذلك أمراً سهلاً

بل كان يقتضى الصبر والجلد والمثابرة ، ويقتضى أن لا يكون العمل بدافع من العواطف المثيرة الفورية ، ويقتضى أن لا يتبعوا أهواءهم ، بل يتبعوا قوانين الطبيعة ، ويقتضى الأمر أن يدوسوا أطماعهم ، ويدفنوا عواطفهم .

إن أصحاب الرسول كانوا أنموذجاً لهذا العقل الرفيع ، فإنهم أسلموا أنفسهم إلى الخطة الإلهية دون تحفظ .. ونتج عن ذلك أن الدين الإلهي قد استوى في هذه الدنيا على عوده ، وقامت قائمته ، وأصبح حقيقة دائمة نضرة وارفة الظلال ، للدرجة أنه لا يمكن الآن هدم هذا الدين ولو حاولت الدنيا كلها ذلك .

مشروع البعث الإسلامى

إن هناك أناساً كثيرين يريدون أن يروا مهمة إحياء الإسلام فى صورة مشروع أو خطة ، وهم لا يستطيعون أن يفهموا إمكانية النهضة بدون مشروع أو خطة واضحة القسّمات والملامح .. وهذه نظرة خاطئة ، وحط من شأن حركة إحياء الإسلام ، وما من مشروع إلا وكانت تفاصيله عملاً ما ، بينما حياة الإنسان أوسع من أن تنحصر فى رسوم وشكليات .

والحقيقة أن أكبر مشروع إنما هو إعداد الأفراد لتصميم المشاريع والخطط ، وليس منح مشاريع جاهزة فى أيديهم .. وهذا هو العمل الذى تقوم به الدعوة الإسلامية ، فإن الدعوة الإسلامية الحقيقية تكون الصحوّة الفكرية ، والصحوّة الفكرية تكون أشخاصاً يقومون بالتصميم والتخطيط .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى التوحيد الخالص .. ولم يعط الناس شيئاً مما نسميه خطة أو مشروعاً ، غير أن الشخص الذى كان يتأثر بدعوته كان يجد خطة لعمله ، فكان يبدأ بالعمل داعياً إلى التوحيد والمسلمون الذين هاجروا إلى الحبشة لم يزودوا بخطة أو مشروع ، ولكنهم مثلوا الإسلام تمثيلاً صحيحاً ، وبذلك البتيل الصحيح دخل الإسلام مرحلة الدعوة العالمية .

والمسلمون الذين ذهبوا إلى المدينة قبل الهجرة لم يعطهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من (الخطة) (١) إلا بعض سور من القرآن ،

(١) لا اعتقد أن المؤلف يسمى إلى التقليل من شأن التخطيط فى الأمور التى تحتاج لتخطيط ، ولقد سأل الرسول ممّاذا عن خطته اذا عرض له قضاء فى اليمن .. لكن المهم هو العمل والاخلاص فى أى موقع يحتله المسلم (المراجع) .

ولكنهم قاموا بعمل الدعوة والتعريف بالإسلام حتى أصبحت المدينة دار الهجرة ومركزاً للإسلام ، فإن إخراج الناس من الدين التقليدى وإدخالهم فى الدين الحى هى أكبر مهمة .. هذه المهمة تصنع الرجال الأكفاء الذين يجسدون المبادئ .

إن هذه المهمة تهز كيان الإنسان هزاً .. إنها توقظ فطرة الإنسان فيتفجر فيها ينبوع الحكمة الربانية ، فيتكون أناس ربانيون يتحركون فى التاريخ وكأنهم ينظرون بنور الله ، فيصبحون مهيمين غير مثونين ، أذكاء وأصحاب فراسة كالتى ذكرت فى الحديث النبوى : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ..

إن ذلك الإنسان المؤمن هو أقوى إنسان على وجه الأرض وعنده الجواب على كل سؤال .. إنه يبحث عن أنجح منهج لعمله ، وهذه هى السمة البارزة التى أوجدها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه ، فلم يكونوا فى حاجة إلى أى شىء آخر .

والواقع أن الله قد أعطى لطبيعة الإنسان كل ما تحتاج إليه فى الحياة ، وفى أكثر الأحوال تتراكم عليها الأتربة وتحجبها الأقنعة ... وإن كشف هذا القناع عن طبيعة الإنسان إنما هو هدف الدعوة الإسلامية ، وعندما ينكشف القناع تبدد الظلمة ، وتحول طبيعة الإنسان إلى إشراقة كونية تتألق بها الأرض والسماوات ، فعندئذ يرى الإنسان كل شىء فى شكله الحقيقى ، وإن الإنسان الذى يرى الأشياء كما هى يتيسر له إعداد المشروع كما يتيسر للشخص المبصر أن يصعد بمصعد أو على أدراج سلم إلى طوابق الأبنية الشاغرة .

وسأحكى هنا قصة توضح هذه القضية أحسن توضيح ..

كانت سيدة هندية تسكن مع زوجها في طرابلس ، وكانت لا تعرف العربية ، وهى ربة منزل وليست لها علاقة بالخارج ، وذات ليلة أصيب زوجها بألم شديد في بطنه ، ولم يكن هناك أحد يأتي بالطبيب إليها ، ولم يكن في بيتها « هاتف » يوصلها بطبيب في المستشفى .. ولكن الحب الشديد الذى كانت تكنه في حنايا صدرها لزوجها أصبح عوضاً لكل نقص وخرجت من البيت في غسق الليل لا يعوقها (عائق) عدم معرفتها العربية ولا جهلها بالطرق ، ولا عدم الوقوف على عنوان طبيب .. بل خرجت تهبها حرقة اللوعة والاضطراب ، ومرت بمسافات حتى وصلت إلى منزل طبيب باكستانى .. فجاء الطبيب وكشف على المريض وعلم أن هذا التهاب الزائدة اللودية وأن الجراحة ضرورية حالا ، فأخذ المريض في سيارته إلى المستشفى ، وبعد عملية جراحية بأيام شفى الزوج من مرضه وعاد إلى بيته .

وكثير من أمثال هذه الحوادث تعترض كل إنسان في حياته ... إنه يجد نفسه في وضع لم تسبقه خطة عمل ، ولكنه يقاوم هذا الوضع حتى ينجح .

على أن مثل هذه الأحداث تعترض الإنسان في الشؤون العائلية الذاتية ولو خالط أحشاء الإنسان نفس الدرجة من الحب واللوعة لدينه لحلت كثير من الأمور الدينية ، كما يتم حل الشؤون العائلية للإنسان بفضل هذا الحب العميق المتأصل . وبهذا الحب يعرف كل إنسان - بعد ذلك - مقتضيات الدين ومتطلباته ، ويقدم في سبيله ماله وأهله .

وبالتالى يعرف طريقه كما عرفت السيدة المذكورة طريقها .

تساؤلات الناس والإجابة عليها :

إن الناس يتساءلون : « ما المشروع الذى لديكم .. ؟ » .
وا أسفاه .. كيف أخبرهم أن الضرورة لا تقتضى مشروعاً ، بل يحتاج الأمر إلى « قافلة مؤمنة » ... فقط .

إننا نريد أن لا يحدث حدث إلا ويسعى له أفراد من المؤمنين ، ولا يحدث برنامج ولا مشروع فى الحياة الاجتماعية له تأثير ، إلا ويوجد فيه أولئك الرجال الذين يجسدون كل مشروع وبرنامج ، ويفجرون خطة وعملاً وإرادة وسعيًا ، ولا يتحركون مثل تحرك الدمى وفق مشروع وخطة .

ذات يوم صلى الإمبراطور « أورنج زيب عالمكير » بالناس ، ولما رفع يديه بعد الصلاة ذرفت عيناه دمعاً ، وكان « سعد الله خان » قائماً وراءه . وعندما فرغ « أورنج زيب » من الدعاء سأل « سعد الله خان » قائلاً : يا صاحب الجلالة .. إن راية (إمبراطوريتك) ترفرف من (كاشير) إلى (راسكمارى) فهل ثمة أمل عالق بقلبك بعد هذا ؟ ... فسكت « أورنج زيب » قليلاً ، ثم قال : يا سعد الله .. أنا فى حاجة إلى الرجال .

كان لا ينقص « أورنج زيب » مشروع ولا خطة ، وكانت لا تنقصه وسائل أو ثروة أو قوة ، ولكنه فشل فى دعم (السلطنة) المغلوبة لأنه كان ينقصه رجال ، ولو كان عنده جماعة من الرجال المخلصين الجاهدين لكان التاريخ مختلفاً لمن ينظره فى زمن لاحق .

إن (قضية البعث الإسلامى) تبحث عن رجل إنسان فى زحمة الأناسى .

وهى تبحث عن إنسان كم فمه خوف الله بين الناس الصائحين الناطقين

باسم الله ..

وتبحث بين الذين يجرون وراء الدنيا - عبيداً لها - عن إنسان أقعدته الآخرة ..

وتبحث بين من يبتهجون .. عن إنسان اضطر إلى البكاء من خشية الله .
وتبحث عن إنسان بين رافعي رايات (الأناية) دخلت في قلبه بشاشة الإيمان ووجد الله ، حتى لم تبق عنده إلا روح خالية من الأناية ..
وتبحث عن إنسان بين المتحاربين بإسم الدين تخلى عن التحارب والصراع وتبحث عن إنسان بين رافعي لافتة (حاسبوا غيركم) اتخذ شعاره (حاسبوا أنفسكم) ...

هؤلاء (الأناسي) ينتظرهم الإسلام .. وهؤلاء هم الذين سيحققون للإسلام الهيمنة الفكرية ، وسيقودون (قضية البعث الإسلامي) محققين (المنهج والشروط) ..

إن الإسلام يحتاج اليوم إلى جماعة من الأفراد يخلصون إلى حد يمكنهم من رؤية الحقائق عبر الظواهر .

وإلى نخبة من الرجال الذين يركزون - بصبر - جهودهم على هدف ويتركون ما لا يعينهم ..

وهو يحتاج إلى جماعة تحتقر الدنيا وتؤثر الآخرة إلى حد يسهل لهم كل تضحية ، ويلغون في الواقعية درجة تمكنهم أن ينظروا إلى محاسن غيرهم ويؤثروا على أنفسهم في الحكم والإدارة .

إن الإسلام يحتاج الآن إلى رجال ينظرون إلى الحقائق حتى لا تحجبهم مسألة لفظية عن الحقيقة ولا تشوبهم شائبة العواطف ، حتى لا ينحرفوا عن الحق بسبب النزاع أو الشجار ، تتحرك قلوبهم حسداً لرفي شخص آخر يحبون الحقيقة أكثر من الظاهر ، وينظرون إلى المستقبل أكثر من الحال .

وخلاصة القول .. أنهم يعيشون في الآخرة أكثر مما يعيشون في هذه الدنيا ، يخافون مقام الله .. هؤلاء هم قوام الإسلام في عهده الأول وسيكونون لبنات الإسلام في عهده الثاني .

والواقع أن مسألة المشروع إنما هي مسألة إعداد وتربية للأفراد ، فإن الأفراد لا يخرجون من مصنع ، ولا يتكونون في شعب من الشعب الخارجية ، والطريق الوحيد لإعداد الأفراد هو إثارة حركة خالصة على أساس الدين القيم تمس فطرة الإنسان ، وتوقظه من منامه بالضرب على الوتر الحساس ، وتمزج في فكر الإنسان صبغة الله كي يصنع كيان الإنسان بها

ومثل هذه الحركة لا تخرج برد فعل لحال من الأحوال ، إنها ترادف معنى إيقاع نعم الله على أوتار الفطرة ، وإنها تشرح حكمة القرآن في لسان عصره .. وإنها تدعو إلى ما دعا إليه الرسل .. وهي تظهر كأداة اتصال بين العبد وربّه ، وهي تتمثل (الحس الإبداعي الإلهي) .. مثل ضوء الشمس .. وغير الأزهار .. وإن آثار حركة كهذه لكفيلة أن تخرج في المجتمع رجالاً ربانيين يضمون بين جوانحهم كل خطة وبرنامج إن تاريخ الأنبياء ليدلنا على أنه بالرغم من هذه الدعوة فإن الحركة لا يفيد منها إلا رجال يتميزون بخصوبة الفطرة ، وصلاحية النمو .. أما الأرض الصحراوية القاحلة فستظل قاحلة بعد هطول الأمطار أيضاً مثلما كانت قبل ذلك .

« والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا »
(الأعراف : ٥٨)

المهمة المطلوبة

بما أن الإسلام آخر دين ، فإن له الخلود والبقاء والدوام .
لذلك كان الحفاظ عليه - أيضاً - شيئاً ضرورياً ومطلوباً ..

ومما لا شك فيه أن بعض الحركات الإسلامية في هذا العصر قامت بإسداء خدمات جليلة في هذه الناحية ، فاحتفظت بقلب الإسلام الفكري والعمل ، فثمة مدارس ومعاهد ومؤسسات تضطلع بواجب الحفاظ على علم الفقه والحديث والتفسير ... وثمة جماعات تنقل صورة العبادات الإسلامية من جيل إلى جيل ، وثمة مطابع ودور للنشر تقوم بطبع القرآن والحديث بصحة كاملة ، فكل هذه الأعمال مفيدة في حد ذاتها ، ولكنها أعمال (حفظ وصيانة) وليست من جوهر عمل الدعوة .

فأما مسألة إحياء الإسلام كدعوة عالمية فلإنها لم تتحقق بعد في العصر الحديث ، حتى يبدو أن الناس لا يشعرون بأهمية ذلك ، ولذلك كثيراً ما يسمون غالب الأعمال باسم « الدعوة الإسلامية » وليس لها صلة فصلها بالدعوة الإسلامية من قريب أو بعيد .

فالطريق الوحيد لبدء عمل إسلامي حقيقي في القرن الخامس عشر الهجري هو القضاء على هذا الوضع الذي يسمى كل حركة سياسية في العالم (حركة إسلامية) ...

إننا نشاهد المسلمين في كثير من البلدان يثيرون الضجيج والأحقاد والقلق ضد ولاية الأمور ، فيشنون حركة ضد سلطة (غير إسلامية) في مكان ، وضد (الحكام المسلمين) في مكان آخر .. وتارة يناضلون

نضالا إسلامياً ، ويجاهدون بأقلامهم وألسنتهم تارة أخرى .. ويعملون حيناً تحت فلسفة (السياسة الإسلامية) ويتحركون في حين آخر دون فكرة أو فلسفة ، ويتخذون عنواناً قومياً في بلد وعنواناً نظامياً في بلد آخر . ورغم هذه الفروق والاختلافات يتحدثون على شيء واحد وهو عدم استخدام الإمكانيات الجديدة للدعوة إلى التوحيد والإنذار بالآخرة ، ويستنفدون طاقاتهم في الكفاح ضد الخصوم المزعومين بطريقة لا تعود عليهم بفائدة أو خير أو بركة .

والواضح أن المسلمين قاموا بأعمال ذات آثار عكسية في هذا العصر ، لقد أزال الله العراقيين السياسية الموضوعة في سبيل الدعوة في عصر العلم حتى يقوم المسلمون بنشر رسالة الله بين عباده ، وينذروا الناس بحساب الآخرة ، ويحيطوا أبناء آدم علماً بالهدف الذي خلقوا لأجله ، ويخبروهم عن يوم الحساب الذي هو آت لا ريب فيه .

ولكن المسلمين لم ينصرفوا إلى هذا الهدف .. بل وضعوا بأنفسهم عراقيل سياسية في طريقهم بأسماء جديدة ، فترى أن (الجهاد السياسي) أصبح الشغل الشاغل لكل مسلم ، لكنه مشغول - كل الانشغال - عن (الجهاد الدعوى) .

ومعروف أنه جاء في القرآن أن الله ينصر الذين ينصرونه ، وأن الله يفتح إمكانيات جديدة لدينه في كل عصر .

وعصرنا هذا يقتضى أشخاصاً يقومون بإدراك هذه الإشارة ويكونون رهن إشارة السماء ، ولقد أدرك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إشارة السماء ، وكرسوا حياتهم للعمل .. فكانت النتيجة هي ذلك الانقلاب الذي غير مجرى التاريخ الإنساني ..

إن نزول المطر هو - في حد ذاته - عبارة عن إعلان لإرادة الله الصامته ، حتى يبذر المزارع البذور في الأرض ، فيسخر الله نظام الكون لتأييد هذا العمل ، حتى تعود هذه البذرة في صورة (غلة) وافرة إلى المزارع والمزارع يدرك هذه الإشارة الإلهية ، ويوقف نفسه لتنفيذ هذه الخطة الإلهية فيعود هذا العمل عليه بالحصائل الزراعية الوافية ، وكذلك أحدث الله في هذا العصر فرصاً جديدة تأييداً لدينه بعد عمل دام ألف سنة ، وهذه الفرص هدفها تأييد دعوة التوحيد ونشر الإيمان والشعور بالآخرة .

إن العمل الذي كان يتابع بتأثير قوة المعجزات وخوارق العادات في الماضي ينبغي أن يتابع بقوة مؤشرات العلوم الطبيعية في الحاضر .

وإن العمل الذي كان يمارس في جو من العصية وسيطرة العادات ينبغي أن يمارس الآن في جو من التسامح والتعايش السلمي .

وإن العمل الذي كان يجري فيما مضى بسرعة حيوانية يمكن الآن أن يجري « بسرعة ميكانيكية » ..

إن هذه هي توجيهات الله وهداياه في هذا العصر في حدود فقهنا البشري إنه أبداع إمكانات جديدة فعلاً .. وقد ظلت ولا تزال هذه الإمكانيات تدعو طائفة من عباد الله أن تستغلها حتى تتحول إلى حقيقة واقعة .. ولكن القيادات الإسلامية تجاهلت ، أو لم تستطع فهم توجيهات الله ، واستيعاب طاقات العمل الحديد ، واستغلالها ، فأثارت الصراعات السياسية التي قضى الله عليها بعمل استمر ألف سنة ، وبالتالي صبغ المسلمون الدعوة بصبغة سياسية وقومية ، وجعلوا من الإسلام خصماً للحكومات ، ثم قالوا : هذا هو الدين الذي رضى الله به ، واختاره للمسلمين ، فأدى ذلك إلى اشتباكات مع الأمم المدعوة في كل مكان ، وبقيت جميع الإمكانيات غير مستخدمة .

لقد ضيع المسلمون مدة تزيد على قرن ، حتى استيقظ الشيطان وأحل نوعاً جديداً من الشرك اسمه (الشيوعية) نجح في أن يقوم مقام الشرك القديم وقد ظهرت العقبات في البلدان الشيوعية والسائرة في طريقها ، أمام (الدعوة) ، على النحو الذى كان فى الماضى أيام كان الشرك حاكماً ومتربعاً على العرش .. غير أن الفرص لا تزال سانحة حتى الآن فى العالم غير الشيوعى ..

• • •

وفى مستهل القرن الخامس عشر الهجرى يمكن البدء من جديد ، لاستئناف عمل لم نوفق فيه على امتداد القرن الرابع عشر الهجرى حتى فى العالم الذى لا يسيطر عليه الشيوعيون ..

إن هذا العمل هو البدء الصادق (بالدعوة) .. فلعلنا نقهر عصر الشرك الجديد (الشيوعية والعلمانية) وأيضاً لعلنا نمشى فى الطريق الذى تدفعنا إليه كل المؤشرات الكونية المترجمة للإرادة العليا .. سائرین نحو بناء إنسانية مؤمنة .. وحضارة تعمل للعالم وترجو الآخرة فى سياق واحد .

تم الكتاب والله الموفق

مجلس الشورى
البرلمان
البرلمان
البرلمان
البرلمان

رقم الايداع

٨٤/٥٢٣١

دار الصحوة للنشر والتوزيع

القاهرة

ش. جمال عبد الناصر

بجوار عمارات المهندسين

حدائق حلوان

قضية هذا الكتاب

هذه هي الترجمة العربية لكتاب « إحياء الإسلام في المنظور القريب » للمفكر الإسلامى الهندى الكبير (وحيد الدين خان) الذى عرفه قراء العربية من خلال كتبه الكثيرة التى يقف فى قمته « الإسلام يتحدى » و « الدين فى مواجهة العلم » وعندما أوكل إلى العلامة الكبير « وحيد الدين خان » مراجعة الكتاب ، وفوضنى فى نشره .. رأيت أن الإسم الذى اختاره الأخ المترجم قد يجد بعض الاعتراضات من حيث أن الإسلام فى غير حاجة إلى (إحياء) وإنما الذى يحتاج إلى هذا (الإحياء) هم المسلمون أو هى (علوم الدين) و (طرائق عرضه) ، وليس الإسلام نفسه .. فدين الله (الإسلام) كما وصفه أحد المستشرقين « غطس طرى كان عهده بالوجود أمس » وتخلصاً من مثل هذا الاعتراض رأيت تسميته « قضية البعث الإسلامى - المنهج والشرط » مؤكداً أن هذه التسمية تتمتع بالدقة نفسها التى تتمتع بها التسمية السابقة ، وهى تعبير صحيح تماماً عن (قضية هذا الكتاب) !!

د . عبد الحليم عويس

جنيه